

إِسْتِخَارَةُ النَّبِيِّ ﷺ

بِأَخْبَارِ وَأَشْعَارِ الْكُرَمَاءِ وَالْبُخْلَاءِ

لِابْنِ الْمُبَرِّدِ جَمَالِ الدِّينِ الدَّمَشَقِيِّ الصَّالِحِ الْحَنَبَلِيِّ
(المتوفى سنة ٩٠٩ هجرية)

تحقيق ودراسة
إسرى عبد الغنى البسري



مركز
مخطوطات

إِتخافوا لنبيلاء

بِأَخْبَارِ السُّعَارِ وَالْكَرَمَاءِ وَالْبُخْلَاءِ

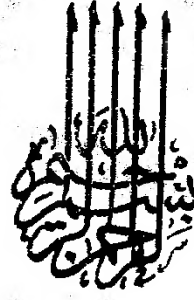
لأبن المبرّد جمال الدين الدمشقي الصّالح الحنبلي
(المتوفى سنة ٩٠٩ هجرية)

تحقيق ودراسة
يسرى عبد الغنى البشري

مكتبة ابن سينا

للنشر والتوزيع والتصدير

٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - النزهة
مصر الجديدة القاهرة ت ٢٤٧٩٨٦٣ / ٢٤٨٠-٤٨٣



جميع الحقوق محفوظة للنّاشِر

حول المؤلف والمخطوط وخطه التحقيق

هو ابن المبرد جمال الدين - يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن
ابن عبد الهادي الدمشقي الصالحى - أخوه ابن المبرد شهاب الدين
صاحب المؤلفات العديدة والمتوفى (٨٩٥هـ) .

ولمؤلفنا عدة تصانيف فى غاية التحرير ، منها :

١ - مغنى ذوى الأفهام عن الكتب الكثيرة فى الأحكام ، مجلد
فى الفقه ، ويسير إلى الإجماع والوفاق والخلاف بنفس الألفاظ على
طريقة مجمع البحرين ، ودرر البحار للحنفية ، بديع الوصف فى ذكر
الراجع عند أهل المذاهب ، لخص ما فى هذا الكتاب من كتاب جمع
الجوامع .

٢ - جمع الجوامع فى الفقه . جمع فيه الكتب الكبار الجامعة
لأشئات المسائل ، كالمغنى والشرح الكبير ، والفروع ، وغيرهما ، وزاد
تقولات غريبة بديعة ، ويرمز فيه للخلاف على طريقة الفروع ، وسع
الكلام فيه بحيث أنه ينقل الرسائل والفتاوى الطويلة بتمامها ، ولو كمل
هذا الكتاب لبلغ ٣٠٠ مجلداً ، عمل منه ١٢٠ مجلداً .

٣ - المعجم لمشائخه .

٤ - المعجم للبلدان .

٥ - معجم الصنائع .

٦ - معجم الكتب .

٧ - مناقب الأئمة الأربعة ، وفى ضمنها طبقات أتباعهم .

- ٨ - مناقب العشرة لكل واحد تصنيف مفرد .
 - ٩ - شرح ألفية ابن مالك .
 - ١٠ - شرح ألفية العراقي .
 - ١١ - تجريد العناية .
 - ١٢ - جمع الأربعين المتباينة . وأكثر من تخريج الأربعينات قيل : بلغت (٤٠٠) .
 - ١٣ - خرج الأربعين النووية بالأسانيد .
 - ١٤ - الدرة المضيئة في فضائل الصالحية .
 - ١٥ - عمل تاريخاً في أيام النبوة إلى زمنه ، وأفرد تاريخ كل قرن في مجلد ، وبعضهم في أكثر ، وأطال في الأول وسماه : بالمطول .
 - ١٦ - وأفرد أعيان كل قرن في آخر وسماه : الرياض الياضة في أعيان المائة التاسعة .
 - ١٧ - وشرع في العاشرة وسماه : النجوم الزاهرة في أعيان المائة العاشرة .
 - ١٨ - رتب مفردات ابن البيطار على العلل .
 - ١٩ - لخص توضيح المشتتة للحافظ ابن ناصر الدين ، في ثلاث مجلدات .
 - ٢٠ - كتب الرسالة التي تقدمها في هذا الكتيب ونقوم بتحقيقها وشرحها وتحليل أشعارها وتخريجها وعزوها ، وهي بعنوان : (إتحاف النبلاء بأخبار وأشعار الكرماء والبخلاء) .
- وهذه الرسالة كتبها ابن المبرد جمال الدين في شهر رجب المعظم من

سنة (٩٠٠ هـ) أى قبل وفاته بحوالى (٩) سنوات تقريباً ، حيث أنه من المؤكد أن جمال الدين كانت وفاته فى اليوم السادس من شهر المحرم من سنة (٩٠٩ هـ) .

وقد وجدت هذه الرسالة ضمن مخطوطات دار الكتب المصرية تحت رقم [٤٤٠٦١ ز] وهى عبارة عن نسخة بقلم معتاد بخط نسخ يرجع إلى نهايات القرن الثامن الهجرى ويظهر أنها بخط جامعها (ابن المبرد جمال الدين) فى (١٧) ورقة ، ومتوسط مسطراتها ٢٢ سطراً طولها ٢٢ سم وعرضها ١٦ سم ، وبها كلمات مطموسة غير ظاهرة وبالذات فى الأشعار الكثيرة التى وردت فى الرسالة مما ضاعف جهدنا فى التنقيب والبحث عن مصادر هذه الأشعار وكتابتها كتابة صحيحة وشرحها والتعريف بمناسبتها ودلالاتها .

والرسالة لا يوجد بها عناوين رئيسية أو جانبية لذلك وضعنا من عندنا عناوين أساسية كى تسهل على القارئ القراءة والاستفادة .
ونسأل - فى النهاية - رب العزة سبحانه وتعالى التوفيق والسداد ، فقد حاولنا - ورغم كل السلبات المحتملة - فنسأله سبحانه أجر المحاولة والاجتهاد .

يسرى عبد الغنى

جمادى الأولى سنة ١٤٠٩ هـ

القاهرة فى : يناير سنة ١٩٨٩ م

مقدمة المؤلف

الحمد لله خالق الأرض والسموات ، ومبدع صنع ما فيهن وما بينهما من المخلوقات ، الذي أحاط علمه جميع الكائنات ، فأدرك ما لهن والأصوات واللغات ..

ثم جعل عباده في العلم درجات ، وأشكره على ما منَّ به علينا من نعمه السابغات ، وأسأله الثبات في المحيا وبعد الممات .

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي المبعوث هدى ورحمة للعالمين ، السلام عليه وعلى عباد الله الصالحين .

أما بعد

الباب الأول

الإسلام دين البذل والكرم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي الدمشقي الصالحى، المعروف بابن المبرد جمال الدين^(١) :

اعلم أن الإسلام دين يقوم على البذل^(٢) والإنفاق^(٣)، ويضيع على الشك والإمساك : ولذلك حُب إلى نبيه أن تكون نفوسهم سخية ،

(١) ابن المبرد جمال الدين هو شقيق (ابن المبرد شهاب الدين) واسم شهاب الدين هو أحمد بن حسن بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي شهاب الدين الشهير بابن المبرد - بكسر الميم وسكون الباء . ومن أهم مصنفات ابن المبرد شهاب الدين : (شرح على الخرق) بقى منه اليسير لم يكمله ، (ألغاز فى الفرائض) ، سماها (الفحص الغويص فى حل مسائل الغويص) ، وكتاب (فى المحبة والمتحايين) ، وكتاب (الحصن الكبير المحكم البناء المنجى من كل خوف وشدة وعناء) ، وكتاب (الترشيح فى فضل التسبيح) ، وكتاب (الزهد الفائق فى الوعاء الرائق) ، وكتاب (السحر فى وجوب صوم يوم الغيم والقتر) ، وكتاب (مقدمة فى الفرائض) وكتاب (جزء من أخبار بشر الحافى) ، وكتاب (الاربعون حديثاً) خرجها لنفسه عن أربعين شيخاً من أهل الثقة ، كتاب (شرح الملحة) وهو شرح مطول ، ولابن المبرد شهاب الدين مجموعة من الأشعار حسنة فى مجملها ، ولكنها قليلة ، لأن الرجل لم يعمر إلا نحو الأربعين - وكانت وفاته فى شهر رجب سنة ٨٩٥ هـ - راجع فى ذلك ص ٣١ من كتاب (السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة لمؤلفه محمد بن عبد الله ابن حميد النجدى الحنبلى) .

(٢) راجع ما ذكره ابن المبرد جمال الدين على معنى كلمة البذل واشتقاقها فى نفس الكتاب الذى معنا .

(٣) نقول (نَفَقَتْ) الدابة ماتت وهى من باب دَخَلَ . و (نفق) البيع ينفق بالضم (نفاقاً) رَاجَ ، و (النفاق) بالكسر فعل (المنافق) . و (أنفق) الرجل أى افتقر وذهب ماله ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَأْمَسْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ و (أنفق) الدراهم من النفقة . و (النفق) بفتحين سرب فى الأرض له مخلص إلى مكان . والمعنى المقصود أعطى وبذل للناس فى نية راضية .

وأكفهم نديه^(٤) ، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر^(٥) ، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم لا ينفكون عنه في صباح أو مساء .

● قال تعالى : ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(٦) .

● واعلم أنه من الواجب المحتم على المسلم أن يقتصد^(٧) في مطالب نفسه ، حتى لا تستنفذ ماله كله ، فإن عليه أن يشرك غيره فيما أتاه الله من فضله ، وأن يجعل في ثروته متسعاً يسعف به المحتاجين والبائسين والمنكوبين ويريح المتعبين .

وخير لك أن تبذل الفضل ، وشر كل الشر أن تمسكه ، ولا تلام على كفاف^(٨) . وابداً دائماً بمن تعول فذلك هو الخير والسداد لك ،

(٤) كناية عن البذل في سماحة - و(نذا) من الجود يقال : سن للناس (الندى فندوا) ، وفلان (ندى) الكف أى سخى و(الندا) أيضاً بُعْذَ ذهاب الصوت يقال فلان أندى صوتاً من فلان إذا كان بعيد الصوت . و(الندى) الجود ، ورجلٌ (نِد) أى جواد ، وفلان (أندى) من فلان أى أكثر خيراً منه . وهو (يتندى) على أصحابه أى يتسخى . ولا تقل (يُنْدِي) على أصحابه .

(٥) البر هو الخير - و(البر) ضد العقوق وكذا (المبرة) تقول (بررت) والذى بالكسر أبره (براً) فأنا (بر) به و(بأر) وجمع البر (أبرار) وجمع (البار بررة) وفلان (بير) خالقه (ويَبْرره) أى يطيعه - ولم يذكر أحد سوى الجوهرى صاحب (الصحاح) (التبر) بمعنى الطاعة .

(٦) البقرة/ ٢٧٤ .

(٧) من القصد أى إتيان الشيء وبابه ضرب - نقول : (قصده) وقصد إليه وله . وكله بمعنى واحد و (قصد) قصده أى نحاه نحوه .. و(القصد) بين الاسراف والتقتير يقال فلان (مقتصد) في النفقة . و(اقصد) في مشيك و (اقصد) بذرعك أى اربع على نفسك . و(القصد) العدل .

(٨) الكفاف من الرزق القوت . وهو ما كف عن الناس أى أغنى . وفي الحديث =

واليد العليا خير من اليد السفلى .

● قال سبحانه وتعالى في تحكم آياته : ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ
الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾^(٩) .

● وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنِ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ
لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾^(١٠) .

واعلم أن السخى^(١١) قريب من الله ، وهو أيضاً قريب من الناس ،
وقريب من الجنة ، بعيد من النار .. والبخيل بعيد من الله ، بعيد من
الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار . والجاهل السخى أحب إلى
الله تعالى من عابد بخيل .

● وقال سبحانه : ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ ، وَإِنْ تَخْفَوْهَا
وَتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١٢) .

= الشريف : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً » . و (استكف) و (تكفف) بمعنى وهو
أن يمد كفه يسأل الناس ، يقال فلان (يتكفف) الناس .

(٩) الإسراء/٢٦ ، ٢٧ .

(١٠) الإسراء/٢٨ .

(١١) من سخى أو سخا - و (السخاء) هو الجود وقد (سخا) يسخو و (سخى بالكسر) .
(سخاء) فيهما قال عمرو بن كلثوم :

مشعشة كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ما المَاءُ خالَطَهَا سخينا

أى جُردنا بأموالنا . وقول من قال سخينا من السخونة نصبت على الحال ليس بشيء .
و (سخو) الرجل من باب ظرف أى صار (سخياً) وفلان (يتسخى) على أصحابه أى
يتكلف السخاء .

(١٢) البقرة/٢٧١ .

وقال عز وجل : ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني ، وأنتم الفقراء﴾^(١٣) .

● وقال تعالى : ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾^(١٤) .

● وقال سبحانه : ﴿وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾^(١٥) .

● وقال تعالى : ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾^(١٦) .

● ولا ينبغي أن يغبط أحدٌ أحداً إلا على خصلتين : رجل رزقه الله بالمال ، فسلطه على هلكته^(١٧) في الحق ، ورجل آخر أتاه الله حكمة وعلماً ، فهو يقضى بهما ويعلمهما الناس .

(١٣) محمد/٣٨ .

(١٤) سبأ/٢٩ .

(١٥) البقرة/٢٧٢ .

(١٦) البقرة/٢٧٣ .

(١٧) و(هلكته) من هلك الشئ يهلك بالكسر (هَلَاكَ) و (هُلُوكًا) و (مَهْلُكًا) بفتح اللام وكسرها وضمها (تَهْلُكَةُ) بضم اللام والاسم (الْهَلْكَ) بالضم . قال اليزيدي : (التهلكة) من نواذر المصادر ليست مما يجرى على القياس . و(أَهْلَكُهُ) و(استهلكه) . و(المهلكة) بفتح اللام وكسرها المفاضة . و(هَلَكُهُ) في لغة تميم بمعنى (أهلكه) وبابه ضرب ويجمع (هَالِكٌ) على (هَلَكَى) و (هُلَاكَ) . وجاء في المثل فلان (هَالِكٌ) في (الهوَالِكِ) وهو شاذ غلي ماذكر في المعاجم العربية في فوارس . و (المهلكة) أيضاً (الهلاك) ولم يتقدم لهذه الكلمة معنى غير ذلك ولذلك حذفها صاحب لسان العرب واعتبرها ضمن الكلمات الضائعة . والحديث أخرجه البخارى : كتاب العلم (٧٣) : باب الاغتباط في العلم والحكمة . ومسلم : كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٨١٦) و(٢٦٨) باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه .

والدين الحنيف يقومنا على الخير، ويحرضنا على إنفاق المال في ساحات المعروف، وميادين الخير، فإن ما يخلفه الإنسان بعد موته يصير ملكاً للوارث، ولا أنيس لك في وحشة القبر وظلمته إلا العمل الصالح.

● والمال لا يقدم ولا يؤخر، وبالتالي فإن مال المرء ما قدم ومال وارثه مأخراً.

● وعلينا أن نتقى النار بالكرم والإحسان إلى الفقير والمحتاج ولو بشق تمر^(١٨).

(١٨) ورد حديث نبوى شريف نصه : « اتقوا النار ولو بشق تمر » أخرجه أحمد عن عائشة . وأخرجه البزار أيضاً عن عائشة ، وحسن المنذرى إسناد أحمد ، وقال الهيثمى : « روى البزار بعضه ، وفيه أبو هلال ، وفيه بعض كلام وهو ثقة » ، وأخرجه أيضاً عن عدى بن حاتم ، وأخرج رواية أخرى عن عبد الله بن مسعود ، بلفظ : « ليتنى أحدكم وجه النار ولو بشق تمر » . وانفرد أحمد بهذه الرواية ، وقال الهيثمى : « رجاله رجال الصحيح » . وقال السيوطى فى (الدرر المنتثرة) : وفى الصحيحين من حديث عدى بن أبى حاتم وورد أيضاً من حديث أبى بكر الصديق وأبى هريرة . وأخرجه أيضاً أبو يعلى ، عن أبى بكر وفى إسناده ابن إسماعيل الوسائس ، وصرح الهيثمى بضعفه ، وأخرجه البزار عن أبى بكر ، وأبى هريرة من طريقين : الأول فيه عثمان بن عبد الرحمن الجمحى ، قال أبو حاتم : « يكتب حديثه ، ولا يحتج به » ، وحسن البزار حديثه ، والثانية : فيها عبد الله بن شبيب ، وهو ضعيف ، وأخرجه الديلمى أيضاً عن أبى بكر الصديق بزيادة : « ... فإنها تقيم المعوج ، وتسد الخلل ، وتدفع ميتة السوء ، وتقع من الجائع موقعها من الشبعان » . وأخرج الحديث أيضاً النسائى والترمذى وابن ماجه ومالك فى الموطأ ، وزيد بن على فى مسنده . ووجدت الحديث فى (الآلىء المتناثرة فى الأحاديث المتواترة) للزبيدى - ومن اراد عليه مراجعة : لقط الآلىء المتناثرة للزبيدى (ص ٦٠ / حديث ١٧) ، وصحيح مسلم حديث : ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١٩٧ من كتاب الزكاة ، وموطأ مالك حديث (١٢) من كتاب الترغيب فى الصدقة ، وطبقات ابن سعد ٤ / ١١٠ ، ومسند زيد بن على حديث رقم ٤١٠ ، وصحيح البخارى ، الباب ٣٤ من كتاب الأدب ، والباب ١٠ من كتاب الزكاة ، والباب ٥١ من كتاب الرقاق ، والباب ٣٦ من كتاب التوحيد ، وسنن الترمذى ، الباب الأول من كتاب القيامة ، والباب ٣٧ =

● وقرأنا في الأثر: ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ،
فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم
أعط ممسكاً تلفاً^(١٩) .

● ويقول الله في كل الديانات : انفق يا ابن آدم يُنفق عليك^(٢٠) .

= من كتاب الزهد ، وسنن النسائي ، الباب ٦٣ ، ٦٤ من كتاب الزكاة ، وسنن ابن ماجه
الباب ٢٨ من كتاب الزكاة ، والباب ١٣ من المقدمة ، وسنن الدارمي ، الباب ٢٤ من
كتاب الزكاة ، ومسنند أحمد بن حنبل ٣٨٨/١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٦/٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٧٧
، ٦٩/٦ ، ١٢٨ ، وأسباب ورود الحديث لابن حمزة الحسيني ٧٤/١ ، وجامع
الأصول ٢٩٥/٧ ومجمع الزوائد ١٠٥/٣ ، والفتح الرباني ١٥٤/٩ ، والجامع الصغير
للسيوطي ١٤٣ ، والجامع الأزهر للمناوي جزء ١ ورقة ١٥ ب ، وتمييز الطيب من
الخيث لابن الديع ٢٤ ، وكشف الخفاء للعجلوني ٨١ ، وحلية الأولياء ١٦٣/٣ ،
١٢٤/٤ ، و١٢٩/٧ ، ٢٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ونظم المتواتر حديث ١١٨ ، والمقاصد
الحسنة للسخاوي ٢٤ ، والتذكرة في الأحاديث المشتهرة للزركشي ، باب الزهد حديث
٢٦ . كما أخرجه الطبراني في الأوسط أيضاً عن عدى بن أبي حاتم ، وفي إسناده الحسن بن
أبي جعفر الجفري ، وهو ضعيف . وعلق السيوطي في « الدرر المنتثرة في الأحاديث
المشتهرة » (ص ٢٤) على نفس الحديث قائلاً : « والحديث إذا كان في أحد الصحيحين أو
في الكتب الستة لم يعز إلى غيره » والله أعلم .
(١٩) هذا الأثر حديث نبوي شريف عن أبي هريرة رضي الله عنه - رواه الأئمة الستة
فاتفق عليه .

(٢٠) عن حديث شريف نصه : « أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ » أخرجه البخاري في صحيحه عن
أبي هريرة رضي الله عنه . من حديث شعيب ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي
هريرة مرفوعاً ، وأخرجه مسلم أيضاً في صحيحه من حديث معمر ، عن همام ، عن ابن
منبه ، عن أبي هريرة مرفوعاً . راجع الحديث في : (صحيح البخاري الباب ١١ من
كتاب التفسير ، والباب ٣٥ من كتاب التوحيد ، وصحيح مسلم حديث ٣٦ ، ٣٧ من
كتاب الزكاة ، وسنن ابن ماجه الباب (١٥) من كتاب الكفارات ، ومسنند الإمام أحمد
٢٤٢/٢ ، ٣١٤ ، ٤٦٤ ، والمقاصد الحسنة ٢٠٠ ، وتمييز الطيب من الخيث ٢٤٦ ،
وكشف الخفاء ٥٣٤ ، وأسنى المطالب رقم ٣٩٨) . وجاء عن النبي ﷺ حديث آخر :
« انْفِقْ بِلَالٍ وَلَا تَخْشَى مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالاً » . أخرجه البزار عن أبي مسعود - وأخرجه
القضاعى في مسنده من حديث مالك بن إسماعيل عن قيس بن الربيع عن أبي الحصين ، =

● ويروى أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه رأى رجلاً يسأل رسولنا الكريم ﷺ : أى الإسلام خير ؟ فأجابه الرسول ﷺ : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على مَنْ عرفتَ ومن لم تعرف^(٢١) .

● وبينما رجلٌ يمشى فى الفلاة [أو بفلاة] من الأرض ، فسمع صوتاً فى سحابة يقول : اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب ، فأفرغ ماءه فى حرة ، فإذا شجرةٌ من تلك الشراج قد استوعبت ذلك كله ، فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم فى حديقته يحول الماء بمسحاته ، فقال له :

= عن يحيى بن وثاب ، عن مسروق عن ابن مسعود ، بلفظ : « دخل النبى ﷺ على بلال وعنده صبر من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : يارسول الله دخرت لك ولضيفانك . قال : أما تخشى أن يفور لها بخار من جهنم ، أنفق يا بلال ... الحديث » . قال البزار : « هكذا رواه جماعة عن قيس ، وخالفهم يحيى بن كثير عنه فقال عن عائشة بدل ابن مسعود » . وأخرجه البزار أيضاً من حديث محمد بن الحسن الأسدى ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحق ، عن مسروق ، عن بلال . وأخرجه البزار أيضاً عن أبى هريرة من حديث موسى بن داود ، عن مبارك بن فضالة ، عن يونس بن عبيد ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، وأخرجه من هذا الطريق أيضاً الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن .

والحديث أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث عثمان بن الهيثم ، حدثنا عوف ، عن محمد ابن سيرين ، عن أبى هريرة . وأخرجه العسكرى فى الأمثال من طريق مفضل بن صالح ، عن الأعمش ، عن طلحة . وأخرجه أبو يعلى من حديث حرب بن ميمون ، بلفظ : « أنفق يا بلال ، ولا تخافن من ذى العرش إقلاقاً » وأورده السيوطى فى الصغير ، وحسنه ، وأورده فى الكبير وعزاه للبزار والطبرانى ، وقال : « وحسن » .

كما ورد نفس الحديث فى « الدرر المنتثرة » للسيوطى حديث رقم (١٣٦) . راجع أيضاً الحديث فى : (المقاصد الحسنة ٢٠١ ، والجامع الصغير حديث رقم ٢٧٤٦ ، والجامع الكبير ٤٢٢/٢/١ حديث ٤٥٨٤ ، والشهاب ١٣٥ وكشف الخفاء ٢١٠/١ ، وفيض القدير ٦١/٣ ، وأسنى المطالب ٤٠٣ ، وتمييز الطيب من الخبيث ٢٤٨ ، والآلى المصنوعة للسيوطى ٣١٥/٢) .

(٢١) حديث نبوى شريف رواه أبو هريرة رضى الله عنه وأرضاه وهو متفق عليه بين الأئمة الستة .

يا عبدَ الله : ما اسمك ؟ قال : فلان - للاسم الذى سمع فى السحابة ، فقال له : يا عبد الله لم تسألنى عن اسمى ؟ فقال : إني سَمَعْتُ صوتاً فى السحاب الذى هو مأوّه يقول : اسقى حديقة فلان لاسمك ، فما تصنعُ فيها ؟ فقال : أما إذ قلتَ هذا ، فإني أنظر إلى من يخرج منها ، فَأَتَصَدَّقُ بثلثه ، وآكُلُ أنا وعيالي ثلثاً ، وأرُدُّ فيه ثلثه^(٢٢) .

- و«الحرّة» الأرضُ الملبسة حجارة سوداء . و«الشَرْجَةُ» بفتح الشين المعجمة ، وإسكان الراء والجيم : هى مَسِيلُ الماء .

● ويعلّمنا الدين الحنيف : أن من تصدق بعدل تمرة من كسبٍ طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يقبلها بيمينه ، ثم يُرِيهَا لصاحبها ، كما يُرى أحدُكم فَلَوَّهُ حتى تكون مثل الجبل^(٢٣) .

و«الْفُلُو» بفتح الفاء ، وضم اللام ، وتشديد الواو ، ويقال أيضاً :

(٢٢) ماخوذ عن حديث بنفس النص عن رسول الله ﷺ رواه مسلم فى صحيحه .
(٢٣) وذلك يؤكّد الحديث الشريف «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب» أخرجه مسلم عن أبى هريرة - وأخرج رواية أبى هريرة أيضاً الترمذى وأحمد بن حنبل من حديث عدى ابن ثابت ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة مرفوعاً ، بلفظ الترجمة ، وأخرجه من هذا الطريق أيضاً الدارمى فى مسنده . وأخرجه الترمذى أيضاً من حديث مهاجر بن مسمار ، عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه مرفوعاً ، بلفظ : «إن الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفئيتكم ولا تشبهوا باليهود» وقال : غريب . وأورده السيوطى فى جامع الصغير ، وقال المناوى : وحسنه ، وأورده فى الجامع الكبير وعزاه لأحمد بن حنبل ومسلم والترمذى . راجع الحديث فى (صحيح مسلم الحديث ٦٥ من كتاب الزكاة ، وسنن الترمذى ، كتاب التفسير سورة ٢ ، وكتاب الأدب الباب ٤١ ، ومسند الدارمى الباب ٩ من كتاب الرقاق ، ومسند أحمد بن حنبل ٣٢٨/٢ ، والمقاصد الحسنة ٢٣١ ، والجامع الصغير للسيوطى ، حديث ١٧٤٨ ، والجامع الكبير ١٥٥٤/٢/١ حديث ٤٨٧٢ ، ٤٨٧٣ ، وتمييز الطيب من الخبيث ٢٩٨ ، وأسنى المطالب ٣٠٩) .

بكسر الفاء ، وإسكان اللام وتخفيف الواو : وهو المَهْرُ .

● وَيُشَبَّهُ البَخِيلُ والمنْفِقُ كمثْل رجلين عليهما جنتان من حديد من تديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق ، فلا ينفق إلا سبغت ، أوفرت على جلده حتى تخفى بنائه ، وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها ، فهو يوسّعها فلا تتسع .

و«الجنة» هي الدرْعُ ، ومعناه : أن المنفق كلما أنفق سبغت ، وطالت حتى تجر وراءه ، وتخفى أثر مشيه وخطواته .

● وكان الرسول الكريم ﷺ ماسئلاً على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، ويقال أن رجلاً جاءه فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يلبث إلا يسير حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها .

ويحكى أن النبي ﷺ قسم قسمًا ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله لغير هؤلاء كانوا أحقّ به منهم ؟ قال النبي ﷺ : «إنهم خبروني أن يسألوني بالفحش أو يخلوني ، ولست بناخل» .

● ويعلمنا النبي ﷺ أن نتقى الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وأن نتقى الشُّحَّ ، فإن الشحَّ أهلك من كان قبلنا ، وحملهم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم .

● وقال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ فَنُفِيسِرْهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ (٢٤) .

● وقال تعالى : ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(٢٥) .

● وقال تعالى : ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾^(٢٦) .

● ﴿أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون﴾^(٢٧) .

● وقال : ﴿أولئك في جنات مكرمون﴾^(٢٨) .

● وقال : ﴿يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾^(٢٩) .

● وضيف إبراهيم كانوا مكرمين : ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾^(٣٠) .

● ووصف القرآن كريم : ﴿إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون﴾^(٣١) .

● وعلينا أن نسدى القول الكريم للوالدين : ﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾^(٣٢) .

● وفي الجنة : ﴿بأيدي صفرة * كرام بررة﴾^(٣٣) .

● وقال تعالى : ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾^(٣٤) .

● وقال عز وجل : ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق

(٢٥) التغابن/ ١٦ .

(٢٦) الأنبياء/ ٢٦ .

(٢٧) الصافات/ ٤١ ، ٤٢ .

(٢٨) المعارج/ ٣٥ .

(٢٩) يس/ ٢٦ ، ٢٧ .

(٣٠) الذاريات/ ٢٤ .

(٣١) الواقعة/ ٧٧ ، ٧٨ .

(٣٢) الإسراء/ ٢٣ .

(٣٣) عبس/ ١٥ ، ١٦ .

(٣٤) العلق/ ٣ .

كريم ﴿٣٥﴾ .

● ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾ .

● وقال تعالى : ﴿نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣٧﴾ .

● وقال سبحانه : ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾ ﴿٣٨﴾ .

● وقال : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿٣٩﴾ .

● وقال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ﴿٤٠﴾ .

● وقال سبحانه : ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٤١﴾ .

● وقال الله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾ .

اعلم أن المال نعمة من الله تعالى على عباده ، وشكرها يكون بالإِنفاق منه في الوجوه المشروعة ، مع عدم البخل ، ومع البعد عن الإسراف ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ ﴿٤٣﴾ .

وفي هذا الموضع بشارة للأسخياء الكرماء الذين ينفقون المال ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وطلباً لثوابه ، فإن الملائكة تدعو لهم في صباح كل يوم بأن يخلف الله عليهم ما أنفقوه ، ويزيدهم فيه .. أما أهل التقير والشح والبخل فإن الملائكة – والعياذ بالله – تدعو عليهم كل صباح بتلف المال جزاء فعلهم .

(٤١) يس/ ١١ .

(٣٨) الحجرات/ ١٣ .

(٣٥) الأنفال/ ٤ .

(٤٢) آل عمران/ ٩٢ .

(٣٩) الرحمن/ ٧٨ .

(٣٦) النمل/ ٤٠ .

(٤٣) الإسراء/ ٢٩ .

(٤٠) الانفطار/ ٦ .

(٣٧) الأحزاب/ ٢١ .

الباب الثاني

الكرم هو الإيمان والطاعة

قال ابن المبرد جمال الدين :

● اعلم - غفر الله لك ولنا - أن الكرم هو الطاعة المطلقة لله ،
وتدبر صنع الصانع الأعظم ، وشكره على نعمائه ، والرضا بقضائه
وقدره ، والتوكل عليه سبحانه^(*) .

ومن معاني الكرم تعليق كل فعلٍ مستقبل بمشيئته سبحانه وتعالى ،
والوفاء بعهد الله ، ويدخل في ضمنه احترام اليمين متى حلف . ودوام
ذكر الخالق بالقلب واللسان .

● وأداء الصلاة المفروضة .

(*) في هذا الباب نلاحظ أن ابن المبرد جمال الدين عمق معنى الكرم فخرج به عن مراده
التقليدى ، وجعل الإنسان الذى يسخو ويذل ويعطى لوجه الله بكرم مكلل بحسن نية ،
وصدق طوية ينصرف بكرمه إلى أخلاقيات وآداب بها يصل الإنسان إلى الإيمان الكامل
ومن هذه الاخلاقيات والتي يكون بها الإنسان على درجة عليا من الكرم الحقيقى : الإيمان
بالله سبحانه وتعالى وبما أنزل من توجيهات ربانية سامية واوامر بها يضمن المرء سعادته
الدنيوية وسعادته الآخروية ، والطاعة المطلقة لله سبحانه ، وتدبر صنعه تعالى ، وشكر الله
على نعمائه ، والرضا الكامل بقضاء الله ، والتوكل عليه عز وجل ، وتعليق كل فعلٍ
مستقبل بمشيئته هو سبحانه وتعالى ، والوفاء بعهده تعالى ، ويدخل في ضمنه احترام اليمين
متى حلف ، ودوام ذكر الله بالقلب واللسان ، وأداء الصلوات المفروضة كاملة في
أوقاتها ، وحج البيت لمن استطاع سبيلاً ، ودعا الله بين الخوف والأمل ، والتوبة إلى الله
العظيم والتماس مغفرته ، وحب الله - الحب الخالص لله وحده .

وأن يكون حبه لله عز وجل فوق كل شيء ، والكريم أو المؤمن الحقيقى هو المرء الذى
لا يعرف اليأس ، فلا ييأس من رحمة الله تعالى ، ويرفض تحت أى حالٍ من الأحوال مجارة
أهل السفه والشرك فى سفهم وسبابهم ، لذا يتجنب مجالسة الخائضين فى آيات الله ...
إلخ .. إذن الإنسان الكريم بهذه المعانى القيمة الجليلة التى هى جوهر وروح الإسلام ، ديننا
الخالد ، الصالح لكل زمان ومكان ، الإنسان الكريم هو الذى يعرف واجباته نحو الله لأنه
أساس الأخلاق فى الإسلام .

هذه سمات الكريم والكرم فى الإسلام ، والبخيل أو البخل ضد ذلك . لذلك . ذكر
المصنف معاني الكرم أو سمات من يتحلى بالكرم الإسلامى الحقيقى وتجاهل معاني البخل
أو سمات البخيل والتي لا تخفى على فطنة القارئ الأريب - والله أعلم .

- وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .
- ودعاء الله بين الخوف والأمل .
- والتوبة إلى الله والتماس مغفرته .
- وحب الله - الحب الخالص لله وحده .
- وأن يكون حبه فوق كل شيء .

- والكرم أن تؤمن بالله وبما أنزل في كتابه المجيد من آداب وأخلاق : قال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال ﴾ ^(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » ^(٢) .

● والكرم هو الطاعة المطلقة لله تعالى قال تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تشبهاً ﴾ ^(٣) .

● وقال المبعوث رحمة للعالمين رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا

(١) البقرة/ ١٧٧ .

(٢) الحديث رواه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وجاء في الصحيحين : صحيح مسلم ، والبخارى - ذكره النووى فى أذكاره ص ٤٨٥ رقم ١٠٨٦ ، وفى ص ٤٥٨ من نفس الكتاب رقم ١٠٠٢ .

(٣) النساء/ ٦٦

تنهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»^(٤) .

والكريم من تدبر صنع الله تعالى وفي ذلك قال رب العزة : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾^(٥) .

فإن الله وحده هو المنعم القائل : ﴿ وما بكم من نعمه فمن الله ﴾^(٦) .

● والكرماء هم من الصابرين فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ﴾^(٧) .

● والكريم هو من توكل على الله قال الحق عز وجل : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمخذولون ﴾^(٨) . وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾^(٩) .

● والكريم هو الذي يُعلق كل فعلٍ مستقبل بمشيئة الله سبحانه وتعالى وفي هذا يقول الله : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾^(٩) .

(٤) جاء الحديث عن أبي ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ - وهو حديث حسن رواه الدارقطني وغيره .

(٥) الذاريات/ ٢٠ - ٢١ .

(٦) النحل/ ٥٣ .

(٧) البقرة/ ١٥٥ - ١٥٧ .

(٨) آل عمران/ ١٦٠ .

(٩) الكهف/ ٢٣ .

● والكرماء هم أهل الوفاء بالعهد فقال المولى سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ ، بَمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١٠) .

● والكریم من أهل احترام اليمين متى حلف قال الخالق الأعظم : ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ (١١) .

● وَيُكْثِرُ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ ، قال الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (١٢) .

● ويسبح ويكبره سبحانه الذى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (١٣) .

● وأداء الصلاة المفروضة لوقتها من خصيات المؤمن الكريم : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (١٤) .

● وقال صاحب الدعوة الغراء والسنة الحنيفة الورقاء صلوات الله عليهم :

« إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيء ، قال الرب عز وجل : انظروا هل لعبدى

(١٠) التوبة/ ٧٥ - ٧٧ .

(١١) المائدة/ ٨٩ .

(١٢) الأحزاب/ ٤١ .

(١٣) الأحزاب/ ٤١ - ٤٢ .

(١٤) النساء/ ١٠٣ .

من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك»^(١٥)

● والكريم من حج البيت لوجه الله إيماناً واحتساباً على الأقل مرة في العمر لمن استطاع لذلك سبيلاً : قال تعالى : ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ، وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١٦) .

● والكريم يدعو الله تعالى بين الخوف والأمل قال الكريم الحليم رب العرش العظيم : ﴿قُلْ مَا يَعْثُرُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾^(١٧) .

● والكريم يدعو الله تائباً إليه ، ملتئماً مغفرته قال تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٨) .

● والكرماء لا يخافون في حب الله لومة لائم قال تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١٩) .

● وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا

(١٥) رواه الترمذي وكذلك أبو داود والنسائي وابن ماجه في سننهم ، ورواه أحمد أيضاً في مسنده بنفس الألفاظ .

(١٦) آل عمران/ ٩٦ - ٩٧ .

(١٧) الفرقان/ ٧٧ .

(١٨) النور/ ٣١ .

(١٩) المائدة/ ٥٤ .

عملته أحبني الناس ، فقال : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » (٢٠) .

● والكرماء يخبون أن يكون حب الله فوق كل شيء قال تعالى :
﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين

(٢٠) حديث : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » .
أخرجه ابن ماجه عن سهل بن سعد . وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية وابن حبان في روضة العقلاء ، والحاكم في المستدرک وصححه ، والترمذی وحسنه ، والبيهقي في الشعب ، وكلهم من حديث خالد بن عمرو القرشي ، عن الثوري عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدي قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبنى الناس ، فقال : ازهد ... الحديث » . قال الحاكم : « صحيح الإسناد » ، وقال السخاوي : « ليس كذلك ، فخالد يجمع على تركه ، بل نسب إلى الوضع » ، وقال الذهبي : « فيه خالد بن عمرو وضاع ، ومحمد بن كثير المصيص ضعفه أحمد » ، وقال المنذرى بعد عزوه لابن ماجه : « وقد حسن بعض مشايخنا إسناده ، وفيه بعد لأنه من رواية خالد القرشي وقد ترك واتهم ، ولكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة ، ولا يمنع كونه رواه الضعفاء أن يكون النبي ﷺ قاله » . وعقب عليه البيهقي بقوله : « خالد بن عمرو ضعيف » وأخرجه أبو نعيم في الحلية أيضاً من حديث منصور بن المعتمر ، عن مجاهد ، عن أنس رفعه ، ورجاله ثقات ، لكن في سماع مجاهد عن أنس نظر ، وقد رواه الأئمة فلم يجاوز مجاهد - كما قال السيوطي في الجامع الكبير - وقد حسن الحديث النووي والعراقي . وذكر الحديث السيوطي في « الدرر المنتثرة » رقم ٧٨ (ص ٨٨) وأخرجه أيضاً القضاعي في الشهاب عن أبي هريرة ، وأخرجه السيوطي في جامعه الصغير وصححه من حديث سهل بن سعد الساعدي . وأخرجه أيضاً السيوطي في الجامع الكبير وعزاه لابن ماجه ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في مستدرکه والبيهقي في شعب الإيمان . راجع الحديث في : (مسند الشهاب القضاعي ١١٢ ، والمقاصد الحسنة للسخاوي ٥٢ حديث ٩٦٠ ، والجامع الكبير للسيوطي ٩٤٦/١/١ ، حديث ٣٠٣٤ ، ٣٠٣٥ ، وأسباب ورود الحديث لأبي حمزة الحسيني ٢٠٨/١ ، وفيض القدير ٤٨٠/١ ، وسنن ابن ماجه ٤١٠٢ ، وتمييز الطيب من الخبيث ١١٨ ، وأسنى المطالب ١٦٩ ، وحلية الأولياء ٢٥٣/٣ ، ١٣٦/٧ ، ٤١/٨ ، والمستدرک للحاكم ٣١٣/٤) .

راجع رواية ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

آمنوا أشد حباً لله» (٢١) .

● والكريمُ لا ييأس من رحمة الله قال سبحانه : ﴿ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (٢٢) .

● والكريم لا يرد الحسنة بالسيئة حتى إذا سبه المشركين قال تعالى : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ (٢٣) .

● والكريمُ مَنْ تجنب مجالسة الخائضين في آيات الله قال تعالى : ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وإنا ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ (٢٤) .

● والكرماء لا يكثرثون بأقوال المتقولين ، ولا يكثرثون من الجلف بالله : قال رب العرش المجيد : ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ، أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ، والله سميع عليم﴾ (٢٥) .

● والكريم من الذاكرين قال تعالى : ﴿واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا﴾ (٢٦) .

● والصدقة تطهير ونماء : ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم

(٢١) البقرة/١٦٥ .

(٢٢) يوسف/٨٧ .

(٢٣) الأنعام/١٠٨ .

(٢٤) الأنعام/٦٨ .

(٢٥) البقرة/٢٢٤ .

(٢٦) الكهف/٢٤ .

بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴿٢٧﴾ .

• وقال رسول الله ﷺ : « قال الله : أنفق يا ابن آدم ، أنفق عليك » ﴿٢٨﴾ .

• والصدقة الجارية هي العمل النافع الكريم : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

• ويكره الله الإسراف قال تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ ﴿٣٠﴾ .

ويحب التعاون : قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ ﴿٣١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ﴿٣٢﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ ﴿٣٣﴾ .

(٢٧) التوبة/١٠٣ .

(٢٨) رواه البخارى وكذلك مسلم - وراجع ما ذكرناه عن هذا الحديث وتخرجه في الباب السابق .

(٢٩) حديث صحيح رواه مسلم وهو مشهور .

(٣٠) الإسراء/٢٦ ، ٢٧ .

(٣١) المائدة/٢ .

(٣٢) العصر/٣ .

(٣٣) البلد/١٧ .

● وقال النبي ﷺ : «الدين النصيحة»^(٣٤) وطهارة الكسب من شيم الكرماء قال الله تعالى : ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم﴾^(٣٥) وقال الله عنهم : ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾^(٣٦) .

● وقال تعالى رب السموات والأرض : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾^(٣٧) .

(٣٤) حديث : «الدين النصيحة» . قالوا : لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» - أخرجه مسلم عن تميم الدارى وأخرجه القضاعى أيضاً فى الشهاب عن تميم الدارى ، وأورده المناوى فى الجامع الأزهر وقال : «قال أحمد عن عمرو بن دينار : أخبرنى من سمع من ابن عباس ، ومقتضاه أن فيه انقطاعاً بين ابن عباس ، وعمرو ومع ذلك فيه عبد الرحمن بن ثابت ، ضعفه أحمد وقال : أحاديثه مناكير ، ورواه ، أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح . وأورده السيوطى فى الكبير وعزاه لمسلم عن تميم الدارى ، والبخارى عن ابن عمر ، والترمذى عن أبى هريرة .

راجع الحديث فى : (صحيح البخارى الباب ٤٢ من كتاب الإيمان وصحيح مسلم حديث ٩٥ من كتاب الإيمان ، وسنن أبى داود الباب ٥٩ من كتاب الأدب ، وسنن الترمذى الباب ١٧ من كتاب البر ، وسنن النسائى الباب ٣١ ، ٤١ من كتاب البيعة ، وسنن الدارمى الباب ٤١ من كتاب الرقاق ، ومسند أحمد بن حنبل ٣٥١/١ ، ٢٩٧/٢ ، ١٠٢/٤ ، ١٠٣ ، والجامع الصغير ٤٣٠٢ ، والشهاب ٤ ، وفيض القدير ٥٥٥/٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٤٨/٤ ، وكشف الخفاء ١٣٢٤ ، والمقاصد الحسنة ٥٠٠ ، وأسنى المطالب ٦٨٤ ، وتاريخ بغداد ، ٢٠٧/١٤ ، وتمييز الطيب من الخبيث ٦٣٢ ، والجامع الأزهر جزء ١ ، ورقة ٢٢٣ ب ، والجامع الكبير ٢٣١/١/٢ حديث ١٠٧٣٧ ، ١٠٧٣٨) .

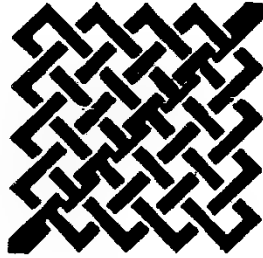
(٣٥) النساء/ ٢ .

(٣٦) المعارج/ ٢٤ ، ٢٥ .

(٣٧) آل عمران/ ١٠٣ .

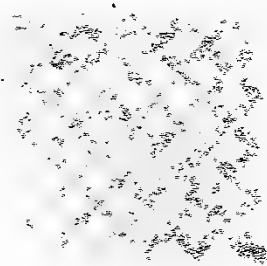
● وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٣٨) .

● وقال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تنجاشوا ولا
تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا ،
عباد الله ، إخوانا ، المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا
يكذبه ، ولا يحقره ، الثقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث
مرّات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم
على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » (٣٩) .



(٣٨) الحجرات/ ١٠ .

(٣٩) حديث صحيح رواه مسلم وغيره بنصه .



الباب الثالث

أشـتات لغوية

البخل في اللغة

بخل - (البُخْل) و (البَخْل) بالفتح و (البِخْل) بفتحيتين كُلُّهُ بمعنى وقد (بَخِل) بكذا من باب فهم وطَرِبَ و (بُخِلًا) أيضاً بالضم فهو (باخل) و (بخيل) صيغة^(١) مبالغة على وزن (فعليل) و (بَحْلَه) نسبة إلى البخل .

ويقال : «الولد (مَبْخَلَةٌ) مجبنة»^(٢) وهو من الأثر المشهور عن النبي

(١) عند قصد المبالغة أو التكثر تحول صيغة اسم الفاعل إلى صيغ سماعية على خمسة أوزان : فَعَّال مثل : مَنَاع - قَوَّام - صَوَّام - تَوَّاق - بَحَّال ، مِفْعَال مثل : مطعان مهذار - مفراج - معدام - مبخال ، فَعُول مثل : غَفُور - شَكُور - حَقُود - صَبُور - بخول ، فَعِيل مثل : عَلِيم - قَدِير - سَمِيع - خَبِير - بخيل فِعْل مثل : حَذِر - قَلِق - يَقِظ - فهم - بخل .

وهذه الصيغ تدل على معنى اسم الفاعل مع إفادة المبالغة . ولذا فهي تسمى صيغ المبالغة . ولاتبنى الا من الفعل الثلاثي . فمثلاً نقول عن شخص إنه حاقد ، فإذا كان كثير الحقد قلنا إنه حقود . كذلك نقول عن الجندی إنه طاعن ، فإذا كان كثير الطعن قلنا إنه مطعان .

والأصل أن صيغة «فَعَّال» من صيغ المبالغة ، إلا أنها تستعمل أيضاً بمعنى صاحب الحدث وعلى الأخص الحرف فنقول نجَّار وخبَّاز وتَسَاخ وطحان . ويعرف أهل اللغة والنحو عمل صيغ المبالغة كمشتق مثله في ذلك مثل : (اسم الفاعل واسم المفعول ، والصفة المشبهة باسم الفاعل ، واسم التفضيل ، واسم الزمان ، واسم المكان ، واسم الآلة) . ويعرفونه على أنه يعمل عمل اسم الفاعل بنفس شروطه . مثل : طمأنْتُ الرجلَ القَلَقُ بآله (بأل : فاعل لصيغة المبالغة «القلق» لأنها محلاة بآل) . إن الله سميع الدعاء الدعاء : مفعول به لصيغة المبالغة «سميع» لأنها مجردة من (ال) ودلت على الحال والاستقبال واعتمدت على مبتدأ . [عن ملخص قواعد اللغة العربية / للأستاذ : فؤاد نعمة ط ٩ ص ٤٢ ، ٤٣] .

(٢) حديث : «الولد مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ» أخرجه ابن ماجه من حديث يوسف بن عبد الله ابن سلام . قال : جاء الحسن والحسين يستبقان إلى النبي ﷺ ، فضمهما إليه ، وذكره . =

عليه السلام . و (البخال) الشديد البخل .

البخل في القرآن الكريم

وفي سورة ال عمران : ﴿ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم.....﴾^(٣) .

وفي سورة النساء ﴿الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾^(٤) .

وفي سورة الحديد : ﴿الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد﴾^(٥) .

= وأخرجه العسكري ، والحاكم عن الأسود بن خلف ان النبي ﷺ أخذ حسناً ، فقبله ، ثم أقبل عليهم ، فقال : «إن الولد مجبنة مبخلة» وأحسبه قال مجهلة ، وأخرجه العسكري فقط عن أشعث بن قيس وفيه اختلاف في اللفظ . وأخرجه أبو يعلى ، والبخاري عن أبي سعيد ، بلفظ : «مبخلة ، مجبنة ، مخزنة» ، وأخرجه القضاعي في الشهاب عن يعلى العامري ، بلفظ ابن ماجه . وأورده المناوي في الجامع الأزهر ، وعزاه الطبراني في الكبير عن خولة بنت حكيم ، وأحمد بن حنبل والطبراني عن أبي يعلى ، وأورده السيوطي في الجامع الصغير ، وضعفه لضعف عطيه العوفي ، وفي الكبير عزاه لأحمد في المسند ، وابن سعد ، والطبراني عن يعلى بن مرة العامري ، راجع الحديث في : الجامع الصغير ٩٦٨٩ ، والجامع الكبير ٧٨٤/١/٢ حديث ١٢٠٤٠ ، والجامع الأزهر جزء ٣ ، ورقة ٨٦ ب ، ومجمع الزوائد ٥٤/١٠ ، والشهاب ٦ ، وفيض القدير ٣٧٨/٦ ، والبداية والنهاية ٢٠٠/٥ ، والمقاصد الحسنة ١٢٦٩ ، وكشف الخفاء ٢٩١٦ ، وأسنى المطالب ١٦٦١ ، وتمييز الطيب من الخبيث ١٥٧٣ ، وسنن ابن ماجه الباب ٣ من كتاب الأدب ، ومسند أحمد ابن حنبل ١٧٢/٤ . كذلك ذكره السيوطي في كتاب : (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة) حديث ٤٣٥ (ص ٤١٥) .

(٣) آل عمران / ١٨٠ .

(٤) النساء / ٣٧ .

(٥) الحديد / ٢٤ .

وفي سورة النساء : ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(٦) .

الكَرْمُ فِي اللُّغَةِ^(٧)

(الكَرْمُ)^(٨) بفتحين ضد اللؤم وقد (كَرُمَ) بالضم (كَرَمًا) فهو (كَرِيمٌ) على وزن (فَعِيلٌ) صيغة مبالغة - وَقَوْمٌ (كِرَامٌ) و (كُرَمَاءُ)

(٦) النساء/ ٣٧ .

(٧) والكرم ضد البخل - وفي القرآن الكريم وردت كلمة (البخل) بأكثر من تصريح وفي أكثر من موضع :

(بخل) : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ... ﴾ [٨] ، ٩ ، ١٠ / الليل .

(بخلوا) : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... ﴾ [١٨٠ / آل عمران] ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون... ﴾ [٧٦ / التوبة] .

(تبخلوا) : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيَحْفَكُمْ تبخلوا ويخرج اضغانكم ﴾ [٣٧ / محمد] .

(ييخل) : ﴿ تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من ييخل ﴾ [٣٨ / محمد] .

﴿ ومن ييخل فإنما ييخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ [٣٨ / محمد] .

(ييخلون) : ﴿ ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم .. ﴾

[١٨٠ / آل عمران] . ﴿ الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من

فضله .. ﴾ [٣٧ / النساء] . ﴿ الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن

الله هو الغني الحميد .. ﴾ [٢٤ / الحديد] .

(البُخل) : ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

أما كلمة (كرم) فجاءت في القرآن الكريم : (٤٨ مرة) بتصريفات مختلفة :

(كرمت) و (كُرْمَنَا) و (أكرمن) و (أكرمهُ) و (تكرمون) و (أكرمى) ، و (كريم)

و (كريمًا) و (كرام) و (كرامًا) و (الأكرم) و (أكرمكم) و (الإكرام) و (مكرمة) ،

و (مُكرِم) و (مكرمون) و (مكرمين) .

(٨) نقول : كرم فلان (جاء) ، مضارعه : يكرم ، مصدره : كرمًا وكرامة - فهو

كَرَمٌ وكريم. وهم كِرَامٌ وكرماء .

على وزن (فِعَالٌ) و (فُعَلَاءٌ) ونسوة (كَرَائِم) وَرَجُلٌ (كَرْمٌ) أيضاً .
وكذا المؤنث والجمع لأنه مصدر . و (الكَرَام) بالضم الكريم فإذا
أفرط في الكرم قيل (كُرَّام) بالضم والتشديد . و (الكَرِيم) الصَّفُوح
و (أَكْرَمَهُ) يُكْرِمُهُ . ويقال في التعجب : ما أَكْرَمَهُ وهو شاذ لا يطرد
في الرُّباعي قال الأخفش^(٩) : وقرأ بَعْضُهُمْ ﴿وَمِنْ بَيْنِ اللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ
مُكْرَمٍ﴾^(١٠) بفتح الراء أى من إكْرَام وهو مصدر كالمُخْرَج
والمُدْخَل . و (الكَرْم) شجر العنب^(١١) . والكرم أيضاً القلادة يقال :
رَأَيْتُ فِي عُنُقِهَا كَرَمًا حَسَنًا مِنْ لَوْلُو .

و (الْمَكْرَمَة) واحدة (الْمَكَارِم) . و (الْمَكْرَم) الْمَكْرَمَة عند
الكسائي^(١٢) . وعند الفراء هو جُمْعُ مَكْرَمَة . و (الْأَكْرُومَة) من الكرم
كالأعجوبة من العجب . و (التَّكْرَم) تَكْلَفُ الكرم .

وقال الشاعر :

تَكْرَمٌ لَتَعْتَادَ الْجَمِيلُ فَلَنْ تَرَى أَخَا كَرَمٍ إِلَّا بَأَنَ يَتَكْرَمَا

(٩) الأخفش في اللغة هو ضعيف البصر أو ضيق العينين أو هو الذي يبصر بالليل دون
النهار مثله مثل الخفاش ، الأخفش لقب اشتهر به ثلاثة من أعلام النحاة العرب يميزون
بالأخفش الأكبر ، والأوسط ، والأصغر ، فالأخفش الأكبر ، عبد الحميد بن عبد المجيد
كان شيخ النحوى أبى عبيدة توفى ١٧٧ هـ (٧٩٣ م) ؛ والأوسط هو سعيد بن مسعدة
أخذ اللغة عن سيويه وينسب إليه زيادة بحور الشعر العربى بحر «الخبب» كما ينسب إليه
تفسير لمعانى القرآن ، توفى ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) ، والأخفش الأصغر ، على بن سليمان
من أهل بغداد عاش طويلاً بمصر ، له شرح كتاب سيويه ، توفى ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) .
(١٠) ﴿وَمِنْ بَيْنِ اللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ...﴾ آية ١٨ من سورة الحج .

(١١) كَرَم (مفرد) وهو العنب جمها (كروم) .

(١٢) الكسائي هو معلم الرشيد وأحد مشايخ الكوفة العراقية البارزين ، إمام في اللغة
والنحو والصرف . والقراء أيضاً إمام جليل من علماء اللغة الرواد الذين جمعوها في أصولها
فكان لهم اليد الطولى في هذا المجال .

ونقول (أَكْرَمَ) الرجلُ أتى بأولادٍ كرام . و (استكرم) استحدث
عِلْقاً كريماً . و (التكريم) و (الإكرام) بمعنى والاسم منه (الكرامة) .
ويقال : حَمَلَ إليه الكرامة وهو مِثْلُ النَّزْلِ . وسُئِلَ عنه الجوهري
صاحب (الصحاح) ^(١٣) فلم يُعَرَف .

البذل في اللغة

(بَذَلَ) الشيء أعطاه وجاد به وبابه نصر .
و (البِذْلَة) و (المبذلة) بكسر أولهما ما يمتهن من الثياب .
و (ابتذال) الثوب وغيره امتهانه .
و (التبذُّل) هو ترك التصاون ^(١٤) .

الشُّح في اللغة

(الشُّح) ^(١٥) هو البخل مع جِرْصٍ وقد (شَحَحْتُ) بالكسرِ شَحَّ
و (شَحَحْتُ) بالفتح شَحَّ وتَشَحَّ بالضم والكسر وقوم (أشحة) جمع

(١٣) الجوهري هو رائد مدرسة القافية في مسيرة معاجنا العربية بما أسهم بمعجمه
«الصحاح» والجوهري هو إسماعيل بن حماد الجوهري . ولد في بلدة فاراب ، وينسب
إليها أحياناً فيقال الفارابي ، وكان إماماً في اللغة والأدب ، دخل العراق فقرأ العربية على
أبي على الفارس والسيرافي ، واختلط بكثير من القبائل العربية عند سفره إلى الحجاز فقد
طوف ببلاد ربيعة مضر ، ثم أقام بنيسابور ملازماً للتدريس والتأليف حتى توفي بها
عام ٣٩٨ هـ .

وصنف الجوهري كتباً كثيرة ، فصنف كتاباً في العروض ، ومقدمة ضافية في النحو
العربي ، ثم معجمه الشهير واسمه بالكامل «تاج اللغة وصحاح العربية» .
(١٤) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لم أَسْتَدِل فيه على آية واحدة فيها كلمة
(بذل) وذلك قدر علمي .

(١٥) قال تعالى : ﴿والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح﴾ [النساء / ١٢٨] .
وقال : ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [الحشر / ٩] . وقال : ﴿ومن =

والمُتداول رجلٌ (شحيح) وقوم (شحاح) بالكسر . و (تشاح)
الرجلان على الأمر لا يريدان أن يفوتهما .

وجاء في القرآن الكريم : ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم
المفلحون﴾^(١٦) .

وقال تعالى : ﴿والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح﴾^(١٧) .

وقال : ﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون
إليك﴾^(١٨) .

وقال تعالى : ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة
على الخير﴾^(١٩) .

وقال ابن المقفع^(٢٠) : (عوّد نفسك السخاء، واعلم أنه سخآن :
سخاوة نفس الرجل بما في يديه ، وسخاوته عما في أيدي الناس .

= يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴿ [١٦ / التغابن] . وقال : ﴿أشحة عليكم فإذا
جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك﴾ [١٩ / الأحزاب] . وقال : ﴿فإذا ذهب الخوف
سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير﴾ [١٩ / الأحزاب] .

(١٦) الحشر/ ٩ والتغابن/ ١٦ .

(١٧) النساء/ ١٢٨ .

(١٨) الأحزاب/ ١٩ .

(١٩) الأحزاب/ ١٩ .

(٢٠) كان عبد الله بن المقفع من أبناء الفرس الذين نشأوا بين العرب ، نشأ بالبصرة
العراقية ، وكان أبوه مجوسياً ، وبقي ابن المقفع أكثر أيامه على دين المجوسية ، ثم أسلم في
آخر عمره ، وتعلم صناعة الكتابة ، وبرع ، وكتب للكثير من الأمراء ، واشتهر ببلاغته
وسهولة أسلوبه ، ومعانيه فيها عمق وتأمل ، وكان يميل إلى ضرب الأمثال ، وهو من كبار
المترجمين والمؤلفين ، وقد اشتهر بكتابه : « كلیلة ودمنة » وله كتابا « الأدب الكبير »
و « الأدب الصغير » ومات مقتولاً سنة ١٤٢ هـ وهذا القول عن السخاء أخذناه من
كتابه « الأدب الكبير » : (ص ٧٤) .

وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة . وتركه ما في أيدي الناس أمحض [أخلص] في التكرم ، وأبرأ من الدنس وأثره .

فإن هو جمعهما فبذل وعف فقد استكمل الجود والكرم) .

● و (سخى) من (السَّخَاء) الجود وقد (سَخَا) يَسْخُو و (سَخَى) بالكسر (سَخَاء) وفيهما قال عمرو بن كلثوم^(٢١) :

مشعشة كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

أى جدنا بأموالنا . وقول من قال سخينا من السُّخونة نُصِبَ على الحال ليس بشيء .

قال (الرازي)^(٢٢) مُعَلِّقاً على ما قال الجوهري في الصحاح : أنه ذكر ضد هذا . و (سَخُو) الرجل من باب ظرْف صار (سخياً) وفلان (يَتَسَخَّى) على أصحابه أى يتكلف السخاء .

(٢١) عمرو بن كلثوم من فحول شعراء الجاهلية هو صاحب معلقة قبيلة تغلب المشهورة أنشدها بعد أن قُتِل المتغطرس (عمرو بن هند) الذى كان يحكم بلاد الحيرة وأراد إذلال الشاعر وأمه لما سمعه من كلام الوشاة والتأمين .

(٢٢) الرازى هو الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى رحمه الله تعالى وهو صاحب كتاب (مختار الصحاح) وقال عنه : إنه مختصر فى علم اللغة جمعه من كتاب الصحاح للإمام العالم العلامة أبى نصر اسمعيل بن حماد الجوهري رحمه الله تعالى ، لما رآه أحسن أصول اللغة ترتيباً وأوفرها تهذيباً وأسهلها تناولاً وأكثرها تداولاً وسماء ، (مختار الصحاح) ، واقتصر فيه على ما لا بد لكل عالم فقيه ، أو حافظ ، أو محدث ، أو أديب من معرفته وحفظه : لكثرة استعماله وجريانه على الألسن مما هو الأهم فالأهم خصوصاً ألفاظ القرآن العزيز والأحاديث النبوية ، واجتنب فيه عويص اللغة وغيرها طلباً للاختصار وتسهيلاً للحفظ ... إلخ .. إلخ ...

الباب الرابع

الكرم في الشعر العربي القديم

كان كرم العربى من وسائل سيادته :

● قال حاتم :

يقولون لى أهلك مالك فاقتصد

وما كنت لولا ما تقولون سيداً^(١)

● وقال ليلى :

وجزور أيسار دعوت لحفها

بمغالق متشابه أجسامها

أدعو بهن لعافر أو مطفل

بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنب كأنما

هبطا تبالة فحصباً أهضامها^(٢)

(١) كان أجدادنا يحيون فى بادية شحيحة بالزاد ، وحياتهم ترحال وتجوال ، فكل واحد منهم مُعرّض لأن ينفذ زاده فهو يقرى ضيفه اليوم لأنه سيضطر إلى أن يضاف فى يوم . ثم هم يكرمون لكلفهم بحسن الأحدثوة وطيب الثناء ، ولأنهم ذوو أريحية وحساسية ، تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف وكان المال فى نظرهم وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى الحياة الشريفة وإلى كسب المحامد ، ولذا عاب بعضهم وصية قيس بن عاصم الذى أوصى بنيه بحفظ المال ، والعرب لا تفعل ذلك وتراه قبيحاً . (راجع الأغاني ١٢/١٥٠ ط دار الكتب) .

والبيت من شعر حاتم بن عبد الله المعروف بحاتم الطائى ، من سادة طيىء ومن كرماء العرب المشهورين . له شعر أكثره فى الكرم ، والحث على بذل الطعام للضيف ، وذم البخل وأهله ، والبيت فى ديوان حاتم (٨) ، وفى شعراء النصرانية (١/١٢٠) .

(٢) إن كتب التاريخ والأدب حوافل بأخبار كرم كرماء العرب ، وبخل أهل البخل منهم ، ولسنا نشك فى أن كثيراً منها قد تطرق إليه الخيال والمبالغة ، ولكنها رغم ما فيها من خيال ومبالغة ، صورة جديرة بالرصد لكونها صورة لأصالة الكرم فى نفوسهم وشيوعه بينهم . وفى نفس الوقت لمدى كرههم للبخل .

والأبيات للبيد بين ربيعة العامرى (٥٦٠ - ٦٦٢ م) أحد شعراء المعلقات المخضرمين ، =

● وقال حاتم :

وإني لعبد الضيف مادام ثاويًا

وما في إلا تلك من شيمة العبد^(٣)

● يقول مضر بن الرعي :

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما

كسا الأرض نضاحُ الجليد وجامده

لأكرمه إن الكرامة حقه

ومثلان عندي قربه وتباعده

= مات بالكوفة العراقية ، وهو أحد سفراء قومه إلى الملوك والعظماء ، أسلم عندما وفد على النبي ﷺ مع جماعة من قبيلته ، وإن كان البعض يشكك أنه ضمن هذا الوفد - برع في الهجاء والرياء ووصف حيوانات الصحراء العربية ، تردد في شعره نغمة دينية واضحة ، وأعجب به نقاد الأدب قديماً ، ولكنهم لم يضعوه في الطبقة الأولى ، طبقة الشعراء الفحول . يتميز شعره بإحكام البناء والصياغة وإن كانت تنقصه الحلاوة - وقد حقق أستاذاً الدكتور / إحسان عباس ديوانه ضمن سلسلة التراث العربي التي كانت تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت سنة ١٩٦٢ م .

- ومما يدل على أن الكرم أثير عند العرب أنه كان من بواعث الميسر عند أجوادهم وأثريائهم إذا اشتد البرد وکلب الزمان ، ليطعموا ذوى الحاجة الجزور التي تياسروا عليها . إن لبید يقول في معلقته : رب جزور مما يذبح أصحاب الميسر دعوت ندمائى لنحرها بسهام الميسر المتشابهة الأجسام ، وأنا أدعو بالقдах لنحر هذه الناقة سواء أكانت عاقراً أم ذات ولد ، وأبذل لحمها للجيران جميعاً ، فالضيوف والجيران يشبعون كأنهم نزلوا بوادى تباله الخصبة سهوله .

و (تباله) موضع ببلاد اليمن يضرب المثل بخصبه وهى غير (تباله) الحجاج - بلدة مشهورة من أرض تهامة فى طريق اليمن - (راجع معجم البلدان لياقوت ٢/٢٥٧) .
(٣) من مظاهر الكرم عند العرب الفرجة الشديدة بالضيف وإعزازه ، والمبالغة فى إكرامه والحفاوة به والتعهد له حتى صاروا له كالعبید ، ولكنهم شرفوا بهذه العبودية كما يقول شاعر الكرم العربى حاتم الطائى (ديوان حاتم ٩/) .

أيت أعشيه السديف ، وإني
بما نال حتى يترك الحى حامده^(٤)

● يقول حاتم :

سلى الجائع الغرثان يأم منذر
إذا ما أتاني بين نارى ومجزرى
هل أبسط وجهى إنه أول القرى
وأبذل معروفى له دون منكر^(٥)

● وقال عروة بن الورد العبسى أو عتبة بن بجير :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته
ولم يلهنى عنه غزال مُقنّع
أحدثه إن الحديث من القرى
وتعلم نفسى أنه سوف يهجع^(٦)

● قال عمرو بن الأهتم :

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً

فهذا ميت صالح وصديق

(٤) هذه الأبيات وردت فى الحماسة (٣٠٢/٢) وفيه يفتخر الشاعر العربى بتقديمه للضيف أشهى ما يملك من طعام بعد أن أضاء الطريق للضيف فى هذه الليلة الباردة ، إنه يقدم لضيفه الذى أكرمه - وهذا حقه - دهن سنام البعير وهو أنفوس مافيه .

(٥) من صنوف الحفاوة بالضيف أن يتلقاه المضيف ببشر وإيناس ، ويتبسط معه فى الحديث ، قالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤكلة كما يقول حاتم فيما سبق .

ووجدت هذين البيتين فى البيان والتبيين (٢٣/١) ، وفى الحماسة (٢٤٦/٢) ، وشعراء النصرانية (٩٢١) وتنسب لعروة بن الورد الشاعر الصعلوك .

(٦) راجع ديوان عروة بن الورد (ص ٢٢) ، وشعراء النصرانية (ص ٩١٣) والحماسة ٣١٤/٢ ، والبيان والتبيين ٤/١ .

● ويقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن قلدة :

أبا دليجة من يوصى بأرملة^(٧)

أم من لأشعث ذى هدمين طملال^(٨)

● وقالت ابنة وثيمة عن أبيها :

الواهب المال التلاد

لنا ويكفينا العظيمة

واحرّ آفاق السماء

ولم تقع في الأرض ديمه

وتعذر الآكال حتى

كان أحدها الهشيمة

لاثلة ترعى ولا

إبل ولا بقر مسيمه

أفيته مأوى الأرامل

والمدفعة اليتيمة^(٩)

(٧) راجع البيان والبيان للجاحظ (٢٤/١) .

(٨) لقد سخوا على الأرامل واليتامى والبائسين والسائلين ، كما قال أوس بن حجر في رثاء فضالة بن قلدة وهذا البيت في ديوان أوس بن حجر (٢٣) ، وفي البيان والتبيين ١٥٩/١ . وهدم : بال ، طملال : فقير .

وواضح أن أوس جعل فضالة ملجأ الأرامل وموئل الفقراء .

(٩) هذه الأبيات جاءت في البيان والتبيين للجاحظ ١٦١/١ - لقد قالت ابنة وثيمة في رثاء أبيها وثيمة بن عثمان أنه يهب المال التلید العزيز عليه ، ويجود إذا اشتد البرد وقل المطر واشتد القحط ، ولم يجد الناس طعاماً خيراً من هشيم ، وهو في هذا الجذب نادى الأرامل واليتامى .

● ويقول ابن ربيع في رثاء رقيقة :

أعني ألا فابكي رقيقة إنه

وصول لأرحام ومعطاء سائل

فأقسم لو أدركته لحميته

وإن كان لم يترك مقالاً لقائل^(١٠)

وقال حاتم لزوجته :

مهلاً نوار اقل اللوم والعذلاً

ولا تقولي لشيء فات مافعلاً

ولا تقولي لمال كنت مهلكه

مهلاً وإن كنت أعطى الإنس والخبلاً

يرى البخيل سبيل المال واحدة

إن الجواد يرى في ماله سبلاً^(١١)

(١٠) جاءت الآيات في البيان والتبيين للجاحظ ١/١٨٢ - فمن أنواع كرمهم صلة الأرحام وإعطاء السؤال ، كما يقول ابن ربيع الهذلي في رثاء رقيقة .

(١١) من عجيب شأن العرب في الكرم أن بعضهم كان يؤثر المحتاجين على نفسه وأولاده ، فقد حدثت امرأة حاتم أن سنة مجدبة أصابتهم ، وفي ليلة كان صبيتهم يتضاغون جوعاً ، فجد حاتم وزوجته في إسكاتهم ، ثم علل زوجته بالحديث ، فعرفت أنه يسرى عنها فتناومت .

وفي آخر الليل جاءت إلى حاتم جارة تشكو إليه جوع بنينا ، فقال لها : أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم . فأقبلت الجارة تحمل اثنين ويمشي إلى جانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رثاها ، فقام على الفور إلى فرسه فذبجه ، ونادى في الحى فهبوا جميعاً ، واجتمع القوم على اللحم يشوون ويأكلون ، أما حاتم فقد التفع في ثوبه وجلس ناحية ينظر ، وما ذاق قطعة مما ذبح !!

راجع ديوان حاتم (ص ١٩) ، وانعقد نفريد ١/٣٣٤ . وأمثال الميداني ١/١٢٢ .
والخيل : الجن . وفي الديوان (البحر والخبلا) بدلاً من (الإنس والخبلا) .

قال الهمداني :

ورابعة ألا أحجل قِدرنا

على لحمها حين الشتاء لنشبعاً^(١٢)

وقالت الخنساء في رثاء صخر :

وإن صخرأً لكافينا وسيدنا

وإن صخرأً إذا نشتو لنحار^(١٣)

وقال ابن أحر العَمَرْد :

وكم حلها من تيحان سميدع

مضافي الندى ساق بسهماء مطعم

طوتِ البطن متلاف إذا هبت الصبا

على الأمر غواص وفي الحى شيزم^(١٤)

قالت بنت لبيد بن ربيعة العامري :

إذا هبت رياح أبي عقيل

ذكرنا عند هبتها الوليدا

(١٢) قائل البيت مالك الهمداني معدداً لمناقبه . وجدته في الأصمعيات (٥٨) .

ولأحجل القدر : لأخفيا في حجلة وهي بيت العروس .

(١٣) هذا البيت من رثاء الخنساء لأخيها صخر - في ديوان الخنساء (ص ٧٩) -

والخنساء هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمي ، أدركت الإسلام وأسلمت ، وكان

الرسول ﷺ يستنشدُها ، ويعجب بشعرها ، وقد استشهد أولادها الأربعة في حرب

القادسية ، وقالت في ذلك : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم » ، وكانت وفاتها بالبادية في

خلافة معاوية بن أبي سفيان .

(١٤) وجدتهما في البيان والتبيين للجاحظ ٢٦٨/١ - والتيحان : الكثير الحركة المعرض

في كل شيء ليغنى فيه ، والسميدع : السيد الكريم ، والسهماء : السنة الشديدة المهزلة

للأجسام ، وشيزم : فتى طويل جسيم طلق الوجه .

أشم الأنف أبيض عشمياً
أعان على مروءته ليبدأ^(١٥)

قال الحارث بن حلزة :

لا تكسع الشؤل بأغبارها
إنك لا تدري من الناتج
وأصيب لأضيافك ألبانها
فإن شر اللبن الوالج^(١٦)

وقال محلم بن فراس يرثى متصوراً وهاماً ابني المسجاح :

ومن فتي يملأ الشيزى مكللة

شحم السديف ندى الحمد مطعام^(١٧)

وقال أبو قردودة يرثى ابن عمار :

(١٥) لقد أكثر العرب من الافتخار بالكرم ، وأكثروا من المدح به إذا ماهبت ريح الشمال لأنها لا تهب إلا في الجذب - وهذه الريح التي تتحدث عنها بنت لبيد بن ربيعة العامري مهبة من بنات نعل إلى مغرب الشمس صيفاً ، وكانوا يكرهونها لبردها وذهابها بالغيم وبالحياة والخصب في زعمهم ، وهي عندهم الشامية ، وكانوا يمدحون بالكرم والإنفاق إذا هبت هذه الريح - وهي غير ريح الصبا التي تهب من المشرق إلى المغرب ، وكانوا يحبونها ، لرقتها ، ولأنها تجيء بالسحاب والمطر والرى والخصب .

بلوغ الأرب للألوسي (٩٣/١ ، ٣٧٣/٣) ، ونهاية الأرب (٩٧/١) .

(١٦) كان العرب يقدمون اللبن كقرى للضيف . قال الحارث بن حلزة : لا ترك في ضروع النوق بقايا لبن ، وصب لضيفانك ألبانها ، فإن شر اللبن الذي يدخر في البيت - وجدتهما في البيان والتبيين للجاحظ ١٨٤/٣ - والأغبار : بقايا اللبن ، والشؤل : النوق ، الوالج : المدخر في البيت .

(١٧) كان العرب يقدمون اللحم ، ويفخرون بتقديم شحم السنام ، والبيت لمحلم بن فراس يرثى متصوراً وهاماً ابني المسجاح . (راجع البيان والتبيين للجاحظ ٢١٥/٢) .

يا جفنة كازاء الحوض قد هدموا
ومنطقاً مثل وصى اليمنة الحبرة^(١٨)

● وقال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان :
له داع بمكة مشمعل
وآخر فوق دارته ينادى
إلى رُدج من الشيزى عليها
لباب البر يلبك بالشهاد^(١٩)

وصور الأعشى جفنة الملق ممتلئة في قوله :
تروح على آل الملق جفنة

كجاية السيح العرق تفهق
وجاء في (الأمالى) للقالى : « كان أبو محرز خلف يروى البيت
هكذا ، ويقول (كجاية الشيخ) تصحيف ، والسيح الماء الذى يسبح
على وجه الأرض ويجرى ، والجاية الحوض الذى يجمع الماء »^(٢٠) .

● وقال المتخل الهذلى :

(١٨) كانوا يفخرون بسعة الجفان ، لأنها تدل على كثرة الآكلين وقائل البيت أبو قردودة
الذى يرثى ابن عمار منوهاً بكرمه وسعة جفانه (راجع البيان والتبيين للجاحظ ١/١٩٠) .
(١٩) هذان البيتان لأمية بن أبي الصلت الذى يمدح عبد الله بن جدعان (راجع البيان
والتبيين للجاحظ ١/٣١) .

(٢٠) هاهو الأعشى يصور جفنة الملق ممتلئة فياضة - والأعشى الكبير هو ميمون بن
قيس ، الذى ينتهى نسبه إلى بكر ، ويلقب بالأعشى لقصر نظره . كان مولده فى قرية
منفوحة باليمامة قرب الرياض ، وهو من شعراء الطبقة الأولى الفحول ، ومن طوفوا فى
أرض الجزيرة وخارج الجزيرة . كانت وفاته أوائل ظهور الإسلام . (راجع الأمالى للقالى
٢/٢٩٦) .

لادرّ درى إن أطعمت نازلهم
قرف الحنّى وعندى البرمكتوز^(٢١)

● وقال زيد الخيل :

نصول بكل أبيض مشرف
على اللاتي بقى فيهن ماء
عشية تؤثر الغرباء فينا
فلا هم هالسكون ولا رواء^(٢٢)

● وقال عمرو بن عبد الله العجلي :

إذا أخذت النيران من حذر القرى
رأيت سنا نارى يشب اضطرامها^(٢٣)

(٢١) راجع البيان والتبيين ٣٠/١ - إن هذا البيت خير ما يمثل نهج العرب في الكرم -
يقول المتنخل الهذلي : إنه لا يستحق الخير إن أطعم ضيفه قشر المقل (الدوم) وهو يستطيع
أن يقدم له قمحاً .

(٢٢) أى عمل أدل على الكرم ورعاية الغريب من أن يفتظ الرجل لإبله ليأخذ ما بقى في
كرشها من الماء ، فيؤثر به الغرباء ليحفظ بهذا الماء حياتهم وإن لم يكن فيه رى لهم كما
يقول زيد الخيل (راجع الأمالي ١١٧/١) .

ولنا كلمة في هذا المقام : إنه لم تكن مفخرة العربى بأن يقدم لضيفه طعاماً عظيماً لتزيد
من مفخرته بأنه جاد بأنفس ما يملك . وهاهو أبو هلال العسكري الأديب البليغ في كتابه
(الكرماء) يقول لنا : « وقد علمت أن حاتمًا وكعبًا وهرماً لم يجعلوا أمثلاً في الجود لعظم
عطياتهم في القدر ، لأن الواحد منهم إنما كان يقرى ضيفاً أو يهب بغيراً أو عدداً من الشاء
قليلاً ، ولكن ذهب صيتهم في السماح ، وبعد ذكرهم في الجود لأنهم كانوا يعطون وهم
محتاجون ، وينيلون وهم مختلون ، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون والأمين في اليوم
الواحد أكثر من جميع ما أعطاه أولئك في جميع أيامهم ، ولم يضرب بواحد من هؤلاء المثل
كما ضرب بأولئك ، فهذا يدل على أن الناس إنما استحسنا منهم بذلهم مع ضيق أحوالهم ،
وقلة ذات أيديهم ، فجعلوهم أمثلاً مضروبة لكل من استغربوا فعله » . (الكرماء لأبي
هلال العسكري ٣٠ - ٣١) .

(٢٣) ولقد يسدل الليل أستاره ، والغرباء يضربون في الصحراء رجلاً وعلى كل ضامر ، =

قال حاتم :

إذا ما البخيل الخبء أخذ ناره
أقول لمن يصلى بنارى أوقدوا
توسع قليلاً أو يكن ثم حسبنا
وموقدها البادى أعف وأحمد^(٢٤)

ويقول لغلّامه :

أوقد فإن الليل قر
والريح يا غلام ريح صر
عسى يرى نارك من يمر
إن جلبت ضيفاً فأنت حر^(٢٥)

وقال عدى بن زيد :

ربُّ ناربت أرمقتها

تقضم الهنديّ والغارا^(٢٦)

=وهم في حاجة إلى زاد أو ماء أو مبيت ، فما الذى يهديهم إلى محلة أو نجع ؟ تهديهم النار التى يوقدها الكرام لهداية الضيفان واجتذابهم ، وتهديهم النار التى يوقدها العرب لإنضاج الطعام أو للاستدفاء ، وقد أكثروا من التحدث بنار القرى ، ومن هذا البيت المذكور لعمر بن عبد الله العجلي ووجدته فى مُعجم الشعراء للمرزبانى (ص ٢٢٣) .
(٢٤) حاتم الطائى زعيم الكرم العربى يأمر غلمانته بإيقاد النار إذا ما أطفأ البخيل ناره ، وأنه يأمر من يوقدها أن يتوسع فيها كى تكبر وتعلو ، فإن جلبت ضيفاً كان خيراً ، وإلا فقد أدوا مارأوه واجباً عليهم ، وإن حاتمًا ليصف غلامه الذى يسبق الآخرين بإيقاد النار بالعفة ، وأنه يستحق الشكر والحمد . (راجع شعراء النصرانية/١١٣) .

(٢٥) وحاتم مرة أخرى فى ليلة باردة يقول لغلّامه : أوقد النار ، ليرى نارك من يمر ، وإن جاءنا ضيف فأنت حر (راجع شعراء النصرانية/١١٦) .

(٢٦) كان العرب يوقدون النار على المرتفعات ، لتكون آيين وأوضح ، وربما أوقدوها بالمندل الرطب - وهو عطر ينسب إلى مندل بلد بالهند - ونحوه مما يتبخر به ليتهدى إليها =

وقال الأعشى في مدح المخلق :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة

إلى ضوء نار باليقاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها

وبات على النار الندى والمخلق^(٢٧)

وقال مزرد بن ضرار :

فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت

بعلاء تشز للعيون النواظر^(٢٨)

وقال أحدهم :

أوصيك خيراً به فإن له

خلائقاً لأزال أحدها

يدل ضيفي على في غسق اللي

ل إذا النار نام موقدها^(٢٩)

=العميان كما يقول الألوسى في بلوغ الأرب (٧/١) .

ولكني لا أوافق على أن إيقاد النار بالشجر العطر الرائحة كان لهداية العميان إليها ، وأعتقد أن ذلك نوع من الترف المبالغ فيه ، وإظهار للمقدرة ، والتباهى بالثراء ، ورغبة في أن يشموا هم رائحته الطيبة - وهذا ما يقول عدى بن زيد أن ناره كانت تحرق الشجر الطيب الرائحة (الأمالى ٦/١) .

(٢٧) لقد مدح الأعشى المخلق بأن عيوناً كثيرة تلوح إلى ضوء ناره التي هي باليقاع تحرق ، تشب هذه النار للمقرورين يصطليانها ، وبات على النار الندى و (المخلق) والمعروف أن (قافية) الأعشى التي مدح فيها المخلق ونوه به فيها ومجده بها رفعتة بعد فقر وخمول ذكر .

(٢٨) هذا البيت لمزرد بن ضرار وجدته في البخلاء للجاحظ (٢١٩/٢) ، ونار شقراء : أى محمرة ، ونشر : مرتفع .

(٢٩) لقد هدى العرب الغرباء إلى منازلهم في الليل المدلم بنباح الكلاب أيضاً ، وكنوا عن كرم الرجل بجين كلبه ، لأنه ينبح في الليل ، فإذا مارأى الغرباء كف ، لأنه قد اعتاد =

قال الشاعر :

ومستبح بات الصدى يستينه

فتاه وجوز الليل مضطرب الكسر
رفعت له ناراً ثقباً زنادهـا

تليح إلى السارى : هلم إلى قدرى
فلما أتى والبؤس رادف رحله

تلقيته منى بوجه امرئ بشر
فقلتُ له : أهل كأهل ، فلم يجره

بك الليل إلا للجميل من الأمر
وكادت تطير الشؤل عرفان صوته

ولم تُمس إلا وهى خائفة العقر^(٣٠)

وقال عتبة بن بجير الحارثي :

ومستبح بات الصدى يستينه

إلى كل صوت فهو في الرحل جانح
فقلتُ لأهلى : ما يغام مطيه

وسار أضيافته الكلاب النوايح؟

= أن يطرق الدار الغرباء ، وهذا ما قاله هذا الشاعر الذي لم أتعرف عليه رغم طول بحث وتنقيب إلا أنني استفدت في تصحيح البيتين من بلوغ الأرب للألوسی (٧٠/١) .

(٣٠) إذا ضلَّ السارى ليلاً وتحير فلم يدر أين البيوت ، نبج فتسمعه الكلاب ، فتنبح فيقصد أصواتها ، وهذا الذي تقول له العرب (المستبح) - لقد قال الشاعر الذي لم أتعرف عليه أيضاً : لقد ضل مستبح في ظلمات الليل ، فرفع له ناره وتلقاه ببشاشة وهشاشة ، وإن كانت نياقه قد ذعرت من مقدمه لأنها تخوفت العقر - وتليح بمعنى تشير ، ووجه بشر : أى. وجه منطلق .

راجع هذه الأبيات في الأمالي (٢١٠/١) . ونلاحظ أن هذا المعنى طرقة حاتم الطائي أكثر من مرة .

فقالوا: غريب طارق طوحت به
متون الفيافي والخطوب الطوائح
فقلت ولم أجثم مكاني ولم تقم
مع النفس علائ النفوس الشحائح
وناديت شبلاً فاستجاب وربما
ضمناً قرى عشر لمن لانصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه
قد جدد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه
ر عرضنا فيه بواق صحائح
جعلناه دون الدم حتى كأنه
إذا غد مال المكثرين منائح^(٣١)

وقال المثقب العبدى :
وسار تعاه المييت فلم يدغ
له طامس الظلما والليل مذهباً
رأى ضوء نار من بعيد فجاءها
لقد أكذبتة النفس بل رأى كوكباً

(٣١) عتبة بن بجير الحارثي يقص علينا في هذه الأبيات قصة ضيف مستنبح ، أضله
صدى الصوت ، فسمع بجير رغاء ناقته ، وسمع نباح كلاب الحى ، فسأل أهله فقالوا له :
إنه غريب طوحت به المقادير ومعها الصحراء والخطوب ، فهض شاعرنا بجير مهرولاً إلى
نجدته ولقائه ، ولم تقعه معاذير تحتلقها النفس الشحيحة ، ونادى ابنه المسمى (شبلأ)
فلبى ندائه ، لأن الكرم سجية أصيلة لهما ، وربما أكرما من يعاديان ، وقام متهللاً فنحر
من نوقه الباقيات ، وطالما سخرخوا من نوقهم وأهانوها ليصونوا أعراضهم . وجميل من
بجير أن يسمى نفسه أبا الضيف . راجع (الكرماء/١٠) والحماسة (٢/٢٤٠) .

فلما استبان أنها إنسية
وصدّق ظناً بعد ما كان كذباً
رفعَتْ له بالكفِ ناراً تشبّها
شاميةً نكباء أو عاصف صبّا
وقلّت ارفعها بالصعيد كفى بها
منادٍ لسار ليلة إن تأوبا
فلما أتاني والسماء تبلّه
تلقيته أهلاً وسهلاً ومرحباً
وقمّت إلى البرك الهواجد فاثّقت
بكوماء لم يذهب بها النّى مذهباً
فرجّعتُ أعلى الجنب منها بلعنة
رعت مستكنّ الجوف حتى تُصيّباً
تسامى بناث العلى في حجراتها
تسامى عناق الخيل وردا وأشبا^(٣٢)

(٣٢) هذه قصة تصور الكرم العربي في أجلى صورته وقائلها هو (المثقب العبدى) واسمه (عائذ بن محسن بن ثعلبة) ، ويتصل نسبه بربيعة بن نزار ، وقد لقب بالمثقب لقوله في بيت شعر : (ثقبن البراقع للعيون) ، وهو من الشعراء المعدودين في عصر ما قبل الإسلام ، كان في عهد عمرو بن هند ملك الحيرة العراقية ، ومن معاصري عمرو بن كلثوم شاعر (بنى تغلب) . ويتميز شعره بالاتجاه الأخلاقي والدعوة إلى الفضائل والصفات الحمودة في النفوس .

لقد رأى المثقب سارياً أعياء المبيت ، ولم يجد في الظلماء طريقاً ، ولكنه رأى على البعد كوكباً فظنه ناراً موقدة ، فأسرع إليها معتقداً أنه وجد قراه ومبيته وأمانه . فلما تبين أنه واهم كان المثقب قد رفع ناره ، وأمر عبديه أن يشعلاها ، فقدم الضيف إليها مبتلاً من المطر ، فرحب به أيما ترحيب ، ونهض على الفور إلى إبله الراقدة ، فتخير منها أسنمها ، ونحرها ، وأنضج له لحمها وقراه .

وقرأت هذه القصيدة في ديوان المثقب العبدى مخطوطةً بدار الكتب المصرية قسم =

وقال جاتم :

وإذا كان بعضُ المال رباً لأهله

فإني بحمدِ الله مالى مُعَبِّدٌ

يفك به العانى ويؤكل طيباً

ويعطى إذا منَّ البخيل المصرد^(٣٣)

وقال الشمخى الفزارى :

ألم تعلمى يا عمرك الله أننى

كريم على حين الكرام قليل

وأنى لا أخزى إذا قيل مقترٌ

جواد وأخزى أن يقال بخيل^(٣٤)

= المخطوطات تحت رقم (٥٦٥) أدب .

وتعناه : أتعبه ، والبرك الهواجد : الإبل النائمة ، كوماء : سميئة ، النى : السمن ، تسامى : ترتفع ، بنات الغلى : قطع اللحم ، حجراتها : نواحي القدر .
ولذلك نجد الشعر حافلاً بوصف الكلاب بالجبن والأنس إلى الوافدين دلالة على الكرم ، ووصفها بالشراسة والنباح فى القادمين دلالة على البخل ، وقد افتن الشعراء فى هذا افتناناً . (راجع البخلاء للجاحظ ٢/٢١٣-٢١٩) .

(٣٣) إذا كان الأجداد قد افتخروا بالشجاعة ، فقد افتخروا بالكرم ، وكان فخرهم بالكرم دليلاً على أنهم قمعوا شره نفوسهم ، وتغلبوا على شحها ، وآثروا غيرهم على أنفسهم أو أشركوه فى خيرهم .

وقد عرض هذا المخطوط لطرف من فخارهم بهذا ، ومن ذلك فخر حاتم الطائى بأنه سيد ماله ينفقه ويهيئه ، فليس لماله عليه سلطان كسلطانه على بعض الناس ، وهو ينفق ماله فى الخير فيفك به الأسرى ، ويقدمه طعاماً للآكلين ، ويغيث به السائلين والمحتاجين إذا بخل الناس . (راجع شعراء النصرانية ١١٢) .

(٣٤) هذان البيتان للشمخى الفزارى وجدتهما فى البيان والتبيين للجاحظ ٣/١٥٤ .

وقال طرفة :

ولست بحلال التلاع مخافة

ولكن متى يسترفد القوم أرفد^(٣٥)

ويقول علباء بن أرقم :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت

واستعجلت هزم القدر فملّت

دارت بأرزاق الغفاة مغالق

بيدّي من قمع العشار الجلة^(٣٦)

وقال طرفة :

أرى قبر نحام بخيل بماله

كقبر عوى في البطالة مفسد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى

عقيلة مال الفاحش المشدد^(٣٧)

(٣٥) في هذا البيت يتبرأ طرفة بن العبد البكري فيه من أن يكون نزوله إلى مسايل الماء والوهاد تهرباً من القرى ، والبيت من معلقة طرفة بن العبد (ديوان طرفة/ ٢٧) .

(٣٦) روى عن سلمة بن زياد أن أرقم قصيدة ، يقول في بعض أبياتها : إن العذارى ينضجن له اللحم على عجل فيدور به على الطالبين في مغالق .

راجع الأمالي ٨١/١ ، ونوادير أبي زيد ١٨٤ . هزم القدر : غلبانها ، قمع : جمع قمعة وهي رأس السنام ، العشار الجلة : النوق المسنة .

(٣٧) كان لبعض العرب فلسفة عملية صائبة مبنية على بعد النظر والتجربة ، فهم لا يرون مدعاة للبخل ، لأنهم لن يموتوا جوعاً ، ولأن المال الذي يخلفونه سييرته خيرهم ، وقد يكون من الورثة عدو يتلهف ويتشوف ، ثم هم سيموتون وخيرهم أن يخلفوا طيباً . كما يقول طرفة في ديوانه (ص ٣١) . ومعنى يعتام : يصطفى ، الفاحش : البخيل ، نحام : بخيل .

وقال حاتم :

أماوى إن المال غاد ورائح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا
حشرجت نفس وضاق بها الصدر^(٣٨)

وقال أيضاً :

أهِنُ للذى تهوى التلاد فإنه
إذا مت كان المال نهياً مقسماً
ولا تشقين فيه فيسعد وارث
به حين تخشى أغبر اللون مظلماً
يقسمه غنماً ويشرى كرامة
وقد صرت في خط من الأرض أعظماً
قليل به ما يحمدك وارث
إذا ساق مما كنت تجمع مغنماً^(٣٩)

(٣٨) هذان البيتان لحاتم الطائي يحملان في مضمونهما نفس المعنى الذى قاله طريقة في
البيتين السابقين راجع (شعراء النصرانية/ ج ١ ص ١٠٩)

(٣٩) هذه الأبيات لحاتم الطائي يبدو فيها عزمه على بذل المال مهما كانت الظروف
(شعراء النصرانية ١/ ١١٩) وحاتم هذا ساخط ناظم حزين ، يتمثل الموت والوارثين .
وبعضهم يتشوفون موت الغنى ليرثوا ، لذا يوصى حاتم أن ينفق صاحب المال عن آخره
في الكرم ، وحتى لا يستمتع به شانيء ، ولقد يشتري هذا الوارث الشانيء محامداً ومفاخر
لنفسه بالمال الذى ورث . ولعلمهم بكرم حاتم أكثر اختفاء من كرم غالب بن صعصعة ،
لأن الناس بآثار الجاهلية أشد كلفاً . وإلا فما بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر في
النفوس ، وأجل في الصدور من رجال الجاهلية ، مع قرب العهد ، وعظم خطر ما
ملكوا ، وكثرة ما جادت أنفسهم ، ومع الإسلام الذى شملهم ، وجعله الله تعالى أولى بهم
من أرحامهم على حد قول الجاحظ في كتابه الحيوان (١٠٨/٢) .

قال مُعَيَّةُ بن الحمام في رثاء أخيه حُصَيْن :
نَعَيْتَ حَيَا الأضياف في شتوة

ومدرة حرب إذا تخاف الزلازل
ومن لا يُنادى بالهزيمة جاره
إذا أسلم الجار الألف الماكل^(٤٠)

وقال ابن بكير اليربوعي :
والمالء الشيزى لأضيافه
كأنها أعضاد حوض بقاع
لا يخرج الأضياف من بيته
إلا وهم منه رواء شباع^(٤١)

ويقول حازم بن أبى طرفة :
بنية إن الموت لابد لاحق
بشيخك ماضى الأنام المودع
فإن قمت تبكى فقولى أبو الندى
ومأوى رجال بئسين وجووع^(٤٢)

وقال شداد بن الأسود :
فماذا بالقلب قلب بدر
من القينات والشرب الكرام

(٤٠) لقد رثى العرب الكرماء فأشادوا بكرمهم في حياتهم ، وهاهو مُعَيَّةُ بن الحمام يرثى أخيه حُصَيْن - راجع الأملى للقالى (٦٢/١) - والألف : العاجز العبي بالأمور .

(٤١) السفاح بن بكير بن معدان اليربوعي يشيد بسعة وعمق القصاع التى كان يقدمها لضيوفه يحيى بن شداد بن ثعلبة بن بشر . (المفضليات ١٢٣/٢) .

(٤٢) ودّ حازم بن أبى طرفة أن ترثيه ابنته بالكرم إذا ما مات ، فتعدد من مآثرة أنه كان معطاء جواداً ، وأنه كان مأوى الجياع والبائسين (المؤتلف والمختلف للآمدى ١٠٠) .

وماذا بالقلب قلب بدر

من الشيزى تكلل بالسنام^(٤٣)

[فصل] كان خالد بن عبد الله القسرى يقول : تنافسوا فى المغايم
وسارعوا إلى المكارم . واكتسبوا بالجود حمدا ولا تكتسبوا بالمال ذما .
ولا تعدوا بمعروف ولم تعجلوه . واعلموا أن حوائج الناس نعمة من
الله عليكم فلا تملوها فتعود نقماً .

قال الشاعر :

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا
ومات فى إثرهم تلك المكرمات
وخلفوني فى قوم ذوى سفه
لو عاينوا طيف ضيف فى الكرى ماتوا

وقال آخر :

إني وإن لم ينل مالى مدى خلقي
فياض ما ملكت كفاى من مال
لا أحبس المال إلا ريث أتلفه
ولا تُغيرنى حال إلى حال

وقال سودة اليربوعى :

ألا بكرت (مى) على تلومنى
تقول ألا أهلك من أنت عائله
ذرينى فإن البخل لا يخلد الفتى
ولا يهلك المعروف من هو فاعله

(٤٣) هذان البيتان من (ميمية) قالها شداد بن الأسود (أبو بكر بن الأسود) لقتلى بدر -
(سيرة ابن هشام ٢/٤٠٠) .

قال آخرُ :

يفنى البخل بجمع المأل مدته

وللحوادث والأيام ما يدغ

كدودة القز ماتبيه يهدها

وغيرها بالذى تبيه ينتفع

وقال غيره فى المعنى :

ألم تر أن المرء طول حياته

معنى بأمر لا يزال يعالجه

كذلك دود القز ينسج دائماً

ويهلك عما بالذى هو ناسجه

وقال الخطيئة^(٤٤) يصف أعرابياً جواداً صاحب صيد ألوفاً

للفلوات^(٤٥) :

(٤٤) الخطيئة هو جرجول بن أوس : أحد الشعراء الذين أدركوا الجاهلية والإسلام (شاعر مخضرم) . ونشأ فقيراً ناقماً على الدنيا والناس ، وتكسب بشعره ، وأجاد فيه وكان له فى الهجاء تفوق وبراعة لا نظير لهما . شهد واقعة القادسية . وعمر طويلاً . حتى أدركته منيته فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . وهذه القصيدة التى معنا دليل على كرم العرب ، الذى بالغوا فيه ، فكان أحدهم يجود بما يملك . ويذل فى أيام الضيق والعسرة ، ويقول قائلهم لزوجته :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلاً فأئنى لست آكله وحدى

وعرف بين العرب الأجواد الأسخياء من أمثال شاعر الكرم العربى (حاتم الطائى) . الذى نزل به قوم فى سنة مجدية ، شديدة القحط ، والجفاف ، فلم يجد ما يقدمه غير فرسه الحبيب إلى قلبه . فنحره ؛ لتلا بيت ضيوفه جياً . وقد صور الخطيئة فى القصيدة التى أمامك أعرابياً معذماً ، يعيش فى قعر من الأرض ، وينزل به ضيف ، فيلبى الأعرابى بفطرتة و بساطته ورغم كل ظروفه نداء الكرم الأصيل فى نفسه ويبلغ فى ذلك غاية ما كانت تنتظر من معدم مثله .

(٤٥) ذكرها جولد تسهير فى نشرته لديوان الخطيئة سنة ١٨٩١ م فى نهاية القصائد =

وطاوى ثلاثٍ ، عاصب البطن مُرْمَلٍ
 بتيهاء لم يعرف بها ساكن رسماً^(٤٦)
 أخى جفوة ، فيه من الإنس وحشةً
 يرى البؤس فيها من شراسته نعى^(٤٧)
 وأفرد في شعبٍ عجوزاً إزاءها
 ثلاثة أشباح تخالهم بهماً^(٤٨)
 رأى شبهاً وسط الظلام فراعهُ
 فلما بدا ضيفاً ، تسور واهماً^(٤٩)
 فقال ابنه ، لما رآه بحيرة
 - أيا أبت اذبحنى ! ويسر له طعاماً^(٥٠)

= والمقطوعات التى أخلت بها مخطوطات ديوان الخطيئة ، وكذلك ذكرها الأستاذ إفرام البستانى فى العدد الذى نخص به الشاعر الخطيئة من أعداد مجموعته «الروائع» باختلاف فى الرواية ، والظاهر أنه نقلها عن ديوان الخطيئة المطبوع فى القسطنطينية التركية سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) ولم أطلع عليه .

(٤٦) الطاوى : الجائع ، ثلاثٍ : أى ثلاث ليالٍ . عاصب البطن : الذى يتعصب بالخرق ويشدها على بطنه من الجوع - ومُرْمَل : محتاج . ورواها البستانى : «بيداء» . - والرسم : ما بقى بالأرض من آثار الدار : أى هو فى مفازة لم ينزل بها أحد .

(٤٧) الجفوة : غلظ الطبع . فيها : أى فى التيهاء . أى هو محب للعزلة ، لا يألف الناس ، يرى الوحدة فى هذه الصحراء الجرداء نعيماً وسعادة ، لشدة نفوره من الخلق .

(٤٨) البهم : جمع بهمة وهى ولد الضأن والماعز ، شبههم بها لهزاهم . وروى البستانى البيت : تَفَرَّدَ أى تفرد بعجوز . وبعد هذا البيت أورد إفرام البستانى الآتى :

حفاة عُراة ما اغتدوا خبز ملة ولا عرفوا للبرِّ مُد خلقوا طعماً
 (٤٩) فى رواية (تشمز) وفى أخرى (تصور) .

(٥٠) هذا يشبه ما جاء على لسان ذبيح الله سيدنا إسماعيل فى الآية [١٠٢] من سورة الصافات : ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾ .

ولا تعتذر بالعدم عِلّ الذى طرا
 يظن لنا مالا فيوسعنا ذمّا^(٥١)
 فروى قليلاً ، ثم أحجم برهة
 وإن هو لم يذبح فتاه فقدهما
 فيينا هما عنت على البعد عانة
 قد انتظمت من خلف مسجلها نظماً^(٥٢)
 عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
 على أنه منها إلى دمها أظماً^(٥٣)
 فأمهلها حتى تروت عطاشها
 فأرسل فيها من كنانته سهماً^(٥٤)
 فخرت نحوص ذات جحش سميّة
 قد اكتنرت لحماً وقد طبقت شحماً^(٥٥)

(٥١) العُدم : الفقر : طرا : أصلها طراً : أى الذى نزل بنا .
 (٥٢) روى : فكَر . أحجم : امتنع . هَمَّ : كاد يذبحه . وروى إفرام البستانى بعد ذلك
 البيت الآتى :

وقال : هيا رَبَّاهُ : ضيفٌ ولا قِرَى !؟

بَحْقُوكَ لا تحزّمه تا الليلة اللحماء

(٥٣) (فبيناهما) أو (فبيناهُم) - عنت : عرضت العانة : الأتان . المسجل : الحمار
 الوحشى . انتظامها من خلفه : إنضمامها إليه ، وقربها منه .
 (٥٤) فى البستانى : (ظِماءٌ) بدلاً من (أظماً) . والشطر الثانى (ألا إنه منها إلى دمها
 أظماً) بدلاً من (على أنه منها إلى دمها أظماً) .
 (٥٥) الكنانة : جعبة السهام التى توضع فيها .
 (٥٦) فى البستانى : (ذات جحش قتيّة) بدلاً من (ذات جحش سميّة) . وخرت :
 سقطت . والنحوص هى الأتان الوحشية . واكتنرت : امتلأت . طبقت شحماً : أى
 امتلأت حين عَمَّها الشحم .

فيا بشره إذا جرها نحو قومه

ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمي^(٥٧)

فباتوا كراماً قد قضا حق ضيفهم

فلم يغرموا غُرمًا ، وقد غنموا غُنًا

وبات أبوهم من بشاشته أبا

لضيفهم والأُمُّ من بشرها أُمًّا^(٥٨)



(٥٧) في البستاني : (نحو قومها) بدلاً من (نحو قوميه) .

(٥٨) راجع في هذه القصيدة : ديوان الخطيعة/برواية وشرح ابن السكيت (١٨٦ -

٢٤٦ هـ) حققه د . نعمان محمد أمين طه عن مكتبة الخانجي بالقاهرة (١٩٨٧ م) .

الباب الخامس

البخل (*) في الشعر العربي القديم

(*) لاشك أن البخل من الآفات التي أصابت الإنسان فإنها تجرى فيه مجرى الدم في العروق ، وتتغرس في عظامه حتى النخاع فتتحول إلى جزء من تكوينه وطبعه ، ومع مرور الوقت يعرف الناس أن فلاناً بخيل أو مقتتر أو شحيح فيبتعد عنه ندماءؤه وأحباؤه وتهجره الصحبة والرفاق .. والبخيل شخص مريض وإن زعم غير ذلك بل إن البخيل يقص عليك كلاماً يعتبره هو فلسفة خالصة ولم لا .. ولماذا لا تكون للبخل فلسفة يدافع عنها البخلاء ؟ .. إن فلسفتهم في تقديرهم غريبة وطريقة في ذات الوقت ، وهم يقلبون الأمور حتى تصاغ تبعاً لأهوائهم ومشاربهم الخاصة . ولقد اعتبر البخل شيئاً مذموماً غير مستحب في المرء .. وقد قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم والبخل جامع لمساوي القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء» .. ومن الطريف أن يلصق بهذا الداء الخطير نوارد يتناقلها العامة والخاصة على حد سواء ، وهي تنتقل من جيل إلى جيل ، ويلمح المرء من خلال هذه النوارد بعض من حكمة وبعض من تسلية تتسلى بها القلوب ، وهي أيضاً عبرات لكل ذي عقل يعي .. وقد قيل إن بخلاء العرب أربعة - وهم أكثر بالطبع - وهؤلاء البخلاء الأربعة هم الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان .. وقد حكيت نوارد كثيرة عن هؤلاء البخلاء وعن غيرهم .. فقد قيل إن حميد الأرقط كان هجاءً لضيوفه كثير الذم لهم ، وقد نزل عليه ضيوف في أحد الأيام فأطعمهم تمرأ ثم هجاهم بعد ذلك وقال إنهم أكلوا التمر بنواه .. !!

ومن نواردهم أيضاً أن الجوع قد غلب على امرئ ذات يوم فمضى إلى دار أحدهم ليتغذى عنده ، فلما وصل إلى باب الدار أبصر غلامه فسأله عن سيده فقال الغلام : والله لن أدلك عليه إلا إن أعطيتني رغيفاً فولى الرجل هارباً من فوره .. !!

ومن نواردهم أيضاً أنه روى عن بخيل أن ضيفاً قد طرق بابيه ، وكان بين يدي البخيل خبز وإناء به عسل فسارع إلى رفع الخبز وبينما هو يرفع العسل دخل الضيف فكانت مفاجأة للبخيل ولم يستطع تداركها ، وظن أن الضيف لن يأكل العسل بلا خبز إلا أن الضيف وافق على أكل العسل بلا خبز وراح يلحق العسل لعقاً بينما ينظر إليه البخيل بذعر وغيظ ولكنه لم ينتظر فصاح فيه : مهلاً يا أخى والله إنه يحرق القلب .. فقال الضيف : =

= نعم .. صدقت ولكنه يحرق قلبك أنت .. !! وقد قال بخيل لخدمته : هات الطعام وأغلق الباب إلا أن الخادم الحصيف قال بخث : هذا خطأ يا مولاي .. فإنما يقال : أغلق الباب وهات الطعام .. فسر منه سيده وأعتقه ..

إن هذه الطرف التي أوردناها في هذا الهامش على سبيل المثال تظهر أى إعوجاج قد أصاب طبيعة البخيل وتكوينه ، إن للنقود بريق وللذهب كذلك بريق والدرهم الفرد يجذب الدرهم ، وعندما تربو الأموال وتزداد تتحول هذه النفسية المريضة إلى حارسة لهذا المال وكأنزه له ، وتنتهى بذلك وظيفة المال كوسيلة لإسعاد النفس وإرضائها .. ونحن لن نحاول سبر أغوار نفس البخيل في هذه العجالة وتحديد الأسباب التي أدت إلى هذا الاعوجاج فما كان هذا هدفاً ، إنما الغرض من هذا الهامش ينسحب إلى شيئين : أولهما : إظهار الفلسفة التي يركن إليها البخلاء في مذاهبهم وإظهار العبر منها .. أما الشيء الثانى فيمكن فى التسرية عن النفس وتسريتها وتسليتها .. فنوادر البخلاء لا تخلو من ظرف وطرافة . يقول الجاحظ فى كتابه الشهير : « البخلاء » : ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء ؛ بتبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة عجيبة وأنت فى ضحك منه إذا شئت وفى لهو إذا مللت الجد .. والبخلاء - كما يعرف القارىء - واحد من أشهر كتب العرب .. وقد جمع فيه كاتبه نوادر شتى وقصص لبخلاء العرب وهى نوادر لا تخلو من الفكاهة أو الطرافة .. والجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر وقد لقب بالجاحظ .. ولد الجاحظ فى البصرة العراقية وأخذ العلم من أساطين اللغة والثقافة والأدب فى عصره .. وكتب الجاحظ الكثير من المؤلفات فى حياته حتى أصيب بشلل نصفى فى أواخر عمره ، فقضى أيامه الأخيرة بالبصرة حيث مات ويعتبر كتاب : « البخلاء » مع كتاب : « الحيوان » وكتاب : « البيان والتبيين » من أشهر كتبه على الإطلاق .

وكتاب « البخلاء » كتاب ضمَّنه الجاحظ أخبار بخلاء عصره ممن عرفهم أو سمع عنهم ، وقد كتبه نزولاً عند رغبة أحد أصدقائه الذى سأله أن يفصل نوادر البخلاء وطرف الأشحاء وما يجوز فى ذلك من باب الهزل وما يجوز منه فى باب الجد - وقد راح الجاحظ يتتبع ما كتب فى هذا الباب وراح يتقصى الأخبار ويقتنص نوادر أهل العلم والأدب فى مجال البخل ، ويجمع ما يقع بين يديه من النوادر والملح ويقلب النظر فيما تركه الخزامى والكندى وسهل بن هارون وغيرهم فى تحليل نفسية البخلاء .. وقد جمع كل ذلك فى كتاب كان خلاصة خبرته ومجموعة معلوماته وصورة لناحية البخل والاقتصاد فى مجتمعه ، وانتهج فيه سبيل القصص والفكاهة والتهكم ناقداً للإسراف فى حب الدرهم مطرباً حكمة البخلاء فى أساليب اقتصادهم ، مقدماً دروساً حية وعظات فكاهية ومظهراً ثقافة واسعة فى التطلع إلى آفاق مختلفة : =

قال الأعشى :

تيتون في المشتى ملاءً بطونكم

وجاراتكم غرثى يتن خمائصاً^(١)

= والجاحظ يفتح كتابه بنظرة مجملة في نفسية البخلاء وماهم عليه من حب التمية والظهور بغير الحقيقة إخفاءً لعيوبهم وإغضاء عن نقائصهم ثم ماهم عليه من الفطنة لعيوب الناس ، فهم أبدأ عين تنظر إلى الغير لتأخذ عليهم مالا تأخذه على أصحابها ، وبعد ذلك يثبت الجاحظ رسالة سهل بن هارون في البخل ومارد به على بنى عمه الذين تنكروا لمذهبه في البخل ، ثم ينتقل الجاحظ إلى بخلائه ويفتح السلسلة بأهل خراسان وإذا البخل فيهم طبع ثم يأتي إلى ذكر أهل البصرة من المسجدين ، ويروي قصص زبيدة بن حميد الصيرفي ولى الناعطية وأحمد بن خلف وخالد بن يزيد وغيرهم ممن شاعت أخبارهم .. ويثبت الجاحظ بعد ذلك رسالة أبي العاصي إلى الثقفى في ذم البخل ومدح الكرم وجواب ابن التوأم على رسالة الثقفى في إظهار مفاصد البذل . إن كتاب « البخلاء » للجاحظ يصور شريحة من الناس ليسوا وقفاً على عصر بعينه أو زمن بعينه .. فالبخل والشح لصيق ببعض الناس يعيش في طواياهم... والحقيقة أن الجاحظ في كتابه حين صور شريحة البخلاء صورهم بملابسهم .. وبعاداتهم ، بما ألفوا عليه وتعودوه فكأنه ينقل جزء من التاريخ الجغرافى أو بمعنى آخر : الجغرافية التاريخية .. كل ذلك بلغة جاحظية تعكس في سماتها التفكه والمداعبة حيناً والتهكم والسخرية حيناً آخر وكأنك سائر من هذا إلى ذاك ولكنك في النهاية - لا محالة - ظافر بحكمة عظيمة وعبرة ذات أثر عميق .. وفي حقيقة الأمر - ودون مبالغة - إن كتاب البخلاء هو المصدر الأساسى والأصلى الذى استقى منه كل من كتب عن البخل والبخلاء - وابن المبرد : جمال الدين واحد من هؤلاء فقد ذكر أشعار البخل والبخلاء في هذا الفصل الصغير من كتابنا الذى نحققه .

ولمزيد من المعلومات عن البخل والبخلاء راجع كتاب « البخلاء » لأبى بحر بن عثمان الجاحظ وقد قمنا بإعادة تحقيقه والتعليق عليه ودراسته لحساب مكتبتى : القرآن وابن سينا بالقاهرة عام (١٩٨٩ م) . وللقارئ أيضاً أن يراجع ما فى أمهات كتب التراث العربى من أحاديث متفرقة عن البخل والبخلاء ، والكرم والكرماء .

(١) بيت الأعشى يقول لنا : إن شيوع الكرم فى الخلق العربى ، وتقدير العرب للكرماء لا ينفى أن بعضهم كان على بخل يضمن بماله على السؤال ، ويهرب من النوال ، وقد هجى بالبخل بعض رجاىهم ، ونلاحظ فيما سأتى من أشعار فى هذه المخطوطة ان نساءهم كن أبخل من الرجال .

ويقول عروة بن الورد :

إني امرؤ عافى إنائي شركة
وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ مني أن سممت وأن ترى
بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد^(٢)

ويقول الهذلي الأعلم :

وإن سيادة الأقوام فاعلم
لها صعداء مطلبها طويل
أترجو أن تسود ولا تُعْنَى
وكيف يسود ذو الدعة البخل^(٣)

وقال شاعر :

لا تقرني يا بنت عمى بوهة
من القوم دفناً غياً مُفَنِّداً

(٢) في هذه الأبيات يعير عروة بن الورد الشاعر الصعلوك أو أمير الصعاليك جاره أو خصمه بالبخل ، وفي نفس الوقت نجده يفتخر بكرمه (راجع شعراء النصرانية ٨٨٧/) .
وديوان عروة بن الورد (ط بيروت) .

(٣) إن تنفير العرب من البخل دليل فعلى وجوده ، وإلا فلماذا يهجونه وينفرون منه ؟
إن الداعين إلى الخير والمنفرين من الشر إنما ينفرون من شر واقع في المجتمع ويريدون أن يطهروا المجتمع منه ، نقول ذلك كني نثبت أن بعض العرب كان بخيلاً ، غير مجترى بأهاجي الشعراء وتعييرهم خصومهم بأنهم بخلاء ، وقد يقال إن الشعراء يلصقون بأعدائهم ما ليس فيهم .

وهانحن نقرأ أبيات الهذلي المعروف بالأعلم الذي يرى أن طريق السيادة صعب المرتقى وأصعب مافيه أن يكسر الراغب في السيادة حرصه على المال . (البيان والتبيين ٢٢٥/١) .

وإن كان أعطى رأس ستين بكرة
وحكما على حكم وعبد مؤلدا
ألا فاحذرى لا توردئك هجمة
طوال الذرى جنساً من القوم قعدداً^(٤)

وقال حاتم :

وقائلة أهلك بالجود مانا
ونفسك حتى ضر نفسك جودها
فقلت دعيني إنما تلك عادتي
لكل كريم عادة يستعيدها^(٥)

وقال المثلم بن رباح المري :

بكر العواذل بالسواد يلمنى
جهلاً ، يقلن : ألا ترى ما تصنع ؟
أفيت مالك في السفاه وإنما
أمر السفاهة ما أمرتك أجمع^(٦)

(٤) هذا الرجل يحذر بنت عمه من أن تتزوج بآخر بخيل رعديد جبان ، وإن قدم مهرأ مغرياً ، ستين ناقة سمينات وغيرها من عبيد ورضاً بما يريدون (البيان والتبيين ٢٤٦/١ - بوهة : أحق ، دفناس : بخيل حقير ، بكرة : ناقة فتية ، هجمة : قطيع من الابل من أربعين إلى مابعده ، جبس : ثقیل ، قعدد : جبان خامل .

(٥) لقد استرعى انتباهي وأنا أراجع كتب التراث واتابع فيها أخبار الكرماء والبخلاء لأجمع المادة التحقیقة لهذا الكتيب فيض من شكایة الرجال من نسائهم المانعات من الكرم اللائمات على الإسراف ، فمثلاً حاولت امرأة حاتم الطائي أن تغل يده على العطاء بدعوى أنه بسخائه قد أضر بنفسه وبها ، فعصاها ؛ لأن الكرم عادة راسخة عنده لا يستطيع أن يطلها . (راجع شعراء النصرانية ١٢٦/١) .

(٦) لقد ضاق المثلم بن رباح المري بلائماته على كرمه ، لأنهن جاهلات بما يثمر الكرم من محامد ، ويدعين أنه إسراف وطيش ، وما لطيش إلا البخل والأمر بالبخل . (راجع الحماسة ٢٨٦/٢) .

وقال حطائط بن يعفر النهشلي :
تقول ابنة العباب رهم حربتنا
حطائط لم تترك لنفسك مقعداً
إذا ما أفدنا صرمة بعد هجمة
تكون عليها كابن أمك أسوداً
فقلت - ولم أعى الجواب - تبنى
أكان الهزال حتف زيد وأربدا
أرني جواداً مات هزلاً لعننى
أرى ماترين أو بخيلاً مخلصاً^(٧)

ويقول الخيل السعدى :
وتقول عاذلتى وليس لها
بغيد ولا مابعد علم
إن الشراء هو الخلود وإن (م)
المرء يكرب يومه الغد
إنى وجدك ماتخلصنى
مئة يطير عفاؤها أذم
ولئن بنيت لى المشقر فى
هضب تُقصّر دونه العصم

(٧) لقد رد حطائط بن يعفر النهشلي رداً مفحماً على زوجه المدعوة (رهم) التى زعمت أن جوده أهلكتهم لأنه كلما اقتنوا ابلاً بذلها ، كما يصنع أخوه الأسود ، فقال لها غير عاجز عن الجواب : تبصرى ، فهل ترين أن الهزال هو الذى ألمات زيدا وأربدا ، وإنك لتعجزين أن تسمى لى كريماً مات من الهزال ، وتعجزين أن تسمى بخيلاً قد تخطاه الموت ، فلا الكرم يميت : ولا البخل يبقى والأبيات جاءت فى الحماسة (٣٢٠/٢) . وحربتنا : سلبتنا مالنا الذى نعيش به ، صرمة : جماعة من الإبل من عشرة إلى أربعين . هجمة : من الأربعين إلى مابعداها .

لتتقين عني المنية إن (م)
الله ليس كحكمه حكم^(٨)

يقول معاوية بن مالك العامري :
قالت سمية : قد غويت بأن رأيت
حقاً تناوب مالنا ووفود
غنى لعمرك لا أزال أعوده
مادام مال عندنا موجود^(٩)

وقال حجية بن المضرب :
لجئنا ولجت هذه في الغضب
ولط الحجاب دوننا والتقب
تلوم على مال شفاني مكانه
فلومي على ما فاتك اليوم واغضبي
ولا تحسبيني ملدماً إذ نكحته
ولكني حجية بن المضرب

(٨) الخيل السعدى يسلك مسلكاً آخر ، حين تدعي عاذلته التى لاتعلم الغيب ولا تعرف مايجئ به الغد - أن الغنى يخلد صاحبه . وأن الفقر يجلب المصائب ، فكأنها تقول : انه ينقص العمر ويسرع بالأجل ، فيقول لها : أقسم أنى لو ملكت مئة من الابل الخالصة البياض التى طار وبرها من سمنها مانجوت من الموت . وردت الأبيات في المفضليات (١١٦/١) . يكرب يومه : يقرب موته ، يطير عفاؤها : يذهب وبرها من السمن . الأدم : الابل الخالصة البياض ، المشقر : حصن بالبحرين ، العصم : الوعول : أى الهضبة العالية التى لاترقاها الوعول .

(٩) هذان البيتان لمعاوية بن مالك العامري من أوجع الردود على العاذلات اللائمات على الكرم ، فقد اتهمته زوجته بالضلال والسفه لما رأته الناس يقصدونه ، فقال لها : ليكن عملي ضلالاً ، فسأفعله دائماً لأنى تعودته . وهو بهذا يغيظها مرتين . (راجع المفضليات ١٥٦/٢) .

فإن تجلسى فأنت ألقى عيالنا
وإن تكرهى هذه المعيشة فاذهبي
وخطت بعود إثمك فوق عينها
لتذهب عقلى بالنواكة زينبي
رحمتُ بنى معدان إذ ساق ما لهم
وحق لهم منى ورب المحصب
ولما رأيت النفس ألا تقرها
هدايا لهم فى كل قعب مشعب
رثيت لهم لما رأيت سوامهم
عطاء الموالى من أفيل ومُصعب
فقلت لعبدنا أريحا عليهم
سأجعل يتي مثل آخر معزب
وقلت خذوها واعلموا أن عمكم
هو اليوم أولى منكم بالتكسب
أحبنى بها قبر امرئ لو أتته
حرياً لآسانى على كل مركب
أخوك الذى إن تدعه لملمة يجبك
وإن تغضب إلى السيف يغضب^(١٠)

(١٠) لبعض الرجال أقاصيص مع نسائهم البخيلات ، كهذه التى رووها عن حجة بن المضرب ، فقد رأى جاريته ومعها قعب من اللبن ، فقال : أين تذهبين ؟ قالت : إلى أولاد أخيك اليتامى ، فأراقه ، فلما أراح راعيه ابله عليه قال لعبدية : أريحا هذه الابل عن أولاد أخى ، فأراحها كلها عليهم ، فغضبت امرأة حجة غضباً شديداً ، فقال حجة هذه الأبيات وقد ذكرها الآمدى فى (المؤتلف والمختلف / ١٨٣) . لط : لزوم ، ملدم : أحق ثقيل لحيم ، ألقى عيالنا : خيرهم ، النواكة : الحمق ، ساف ما لهم : نقد ، أفيل : هو ولد الناقة ، مصعب : فحل من الإبل ، حريب : فى شدة . إن حجة يصور لنا زوجة =

ويقول ضمرة بن ضمرة :

بكرت تلومك بعد وهين في الندى
بَسَلْ عليك ملامتي وعتابي
ولقد علمتُ فلا تظني غيره
إن سوف تخلجني سبيل صحابي
أَصْرُهَا وَبُنَى عَمِي سَاغِب
فكفاك من إبةٍ على وعاب
أرأيت إن صرخت بليل هامت
وخرجتُ منها بالياً أثوابي
هل تخمشن إبلى على وجوها
أم تعصبن رؤوسها بسلاب^(١١)

ويقول زهير :

وأبيض فياض يداه غمامة
على معفيه مائغِبُ فواضله

= غصبي ، لأنه أنف أن تهدي إلى أولاد أخيه اليتامي لبناً في قعب ، كما يهدي إلى العبيد والبائسين في ذلك العصر ، فأمر عبديه أن يريحا الإبل على أولاد أخيه ليحتلبوا مايشاءون ، ولم يعبأ بلوم الزوجة أو غضبها ؟ لأن هذا العمل قد أراح نفسه ، وهو ليس بليد الحس حتى ينصاع للومها ، وليس بأحمق حتى تخدعه بكحلها ، فتنسيه ماوجب عليه ، ولكنه رجل يحتفظ لنفسه بحقوقه ، فلتعش معه على مايريد وهي إذن موضع رعايته كأنها أعز بنيه وإلا فلتفارق ، ثم صور حجية الباعث له على عطفه .

(١١) هاهو ضمرة بن ضمرة تعجل زوجه هي الأخرى بلومه بعد موهن من الليل ، وذلك لأنه أعان ابن عمه بلبن من ابله ، فقال لها : كيف ابقى اللين في أضرعها ، وابن عمي جائع ؟ هل ترين أني إذا مت تخمشن على الإبل وجوها أو تعصب رؤوسها ؟ وجدت الايات الخمسة في الأملالي للقالى (٨٢/٢) . بكرت : المراد هنا عجلت ، البسل : الحرام هاهنا ، تخلجني : تجذبني ، الإبة : الحياء ، السلاب : خرقه سوداء تتقنع بها المرأة في المأتم .

بكرت عليه غدوة فرأيتُهُ
قعوداً لديه بالصَّريم عواذله
يفدّينه طوراً وطوراً يلمنه
وأعيا فما يدرين أين مخاتله ؟
فأقصرن منه عن كريم مرزأ
عزوم على الأمر الذي هو فاعله
أخى ثقة لا تلتف الخمر ماله
ولكن قد يتلف المال نائله
تراه إذا ما جئته مهلاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائله^(١٢)

(١٢) يظهر من تتبع اشعار العرب عن الكرم والبخل أن عدل النساء كان شائعاً معتاداً ، حتى ان بعض الشعراء العرب المادحين تحدثوا به ، فزهير بن ابى سلمى (شاعر الاسلام) يمدح حصين بن حذيفة ، قائلاً : إنه رآه صباحاً والعواذل يلمنه تارة ويتوسلن إليه تارة أخرى ، ولكنه أعجزهن في كلتا الحالتين .

وقد صححت هذه الأبيات من ديوان زهير بن ابى سلمى (قافية الهاء) ولنا ملاحظة في هذا المجال : إن الشعر الجاهلى ليس كله ممتلاً للعرب أجودا كراما ، كما ذهب د . طه حسين بتشكيكه الدائم اذ يقول : إن هذا الشعر يمثل لنا العرب أجودا كراما مهينين للأموال مسرفين في ازدرائها ، ولكن في القرآن الكريم إلحاحاً في ذم البخل ، وإلحاحاً في ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية ، وهو يبنى على هذه الفكرة وأمثالها أن الشعر الجاهلى كله مصنوع منحول لأنه لا يصور الحياة الجاهلية ، وانما يصورها القرآن الكريم .

ونحن نفخر بأن كتاب الله الكريم وسع كل شئ وهو خير مصور للحياة قبل الاسلام بكل معطياتها الا أن ذلك لا يمنع أن نعترف بأن الشعر الجاهلى تحدث بالبخل ، كما تحدث بالكرم ، وأن بعض الناس عيروا بالبخل ، وأن بعض الناس نفروا منه ، ولم ينفروا من رذيلة غير موجودة في المجتمع ، ثم رأينا بجلاء أن النساء أبخل من الرجال أو هن حقاً بخيلات ملاحظة أخرى : تتصل بالمرأة البخيلة ، لماذا نجد كثيراً من الشعراء حين يفخرون بالكرم أو يمدحون به يصورون النساء عاذلات لائمات ؟ حتى قالوا ان حاتماً طلقته امرأته أو طلقها ، لأنها ألحت عليه أن يبخل ؟ والسؤال : لماذا خصوا الزوجات بهذا العذل =

وقال المرقش الأكبر^(١٣) : إن تُبتدر غايةً يوماً لمكرمة

تلق السوابق مِنَّا والمُصلينَا

= واللوم ويمكنني أن أقول أن كل هذا تخيل من الشعراء أرادوا به أن يعظموا من عزيمتهم وجلال مروءتهم ، لانهم يكرمون حتى حين يلاموا ، والشعراء أداروا هذا الخيال على زوجاتهم ولم يدروه على أمهاتهم أو أخواتهم أو بناتهم ؛ لأن الزوجات أحياناً ليسوا من قرابتهم ، ولكننا نرد على هذه الدعوى بأن من دواعي شرف الرجل أن تكون زوجته كريمة مثله ، لأنها من أصهار كرماء ، أو لأن كرم زوجها أعداها ، فليس مما يشرف الزوج أن يتخيل اللوم من الزوجة لا من أمه أو أخته . ولم يبق في نظرنا إلا أن الشعراء في هذا العصر صوروا حقيقة واقعة ، هي أن النساء بخيلات ، أو على الأقل أبخل من الرجال ، فهن لا يفتأن يلمن على الكرم ويسمينه سفهاً ، ويعذلن على مساعدة الضعاف ، ويدعين أن هذا الكرم يجلب على الفور الفقر والهلاك ولعل بخلهن هذا راجع إلى ظروف خاصة بهن ، منها انهن بعيدات عن التفاعل الاجتماعي أو عن المجتمعات التي يفتخر فيها بالكرم المبالغ فيه ، وانهن في المقام الأول ربات بيوت حريصات على زاد الأسرة ، والمباشرات لما تحتاجه من طعام ، وعلى أنهن عمليات أكثر من الرجال ، فلا يعبأن ببناء يجر نقصاً في الأموال أو فقراً وحاجة . وإذا صح هذا فإن ألصق الناس بالرجل زوجته ، فهي تلومه وتغضب من سخائه ، وهو يصور هذا اللوم وهذا الغضب ، ويرد على زوجته بما ترتضيه نفسه .

(١٣) كان المرقش فارساً من فرسان بكر ، شارك في معاركها مع تغلب ، وكان له صوته بين الفرسان فيها ، وكلمته في تصريح أمر الحرب بها . واسمه عمرو بن سعد بن مالك ، بعث به أبوه إلى الحيرة ، فتعلم وتأدب ، ثم رجع إلى قبيلته بكر ، وتقدم لخطبة ابنة عمه ، فاستصغر عمه شأنه ، وأبأها عليه حتى يعرف بالبأس والنجدة ، ويسود القوم ، ويفد على الملوك ، وحاول المرقش ، ولكنه عاش قصة حزينة ، اندفع يطلب اسباب السيادة ، فخاض الحرب مع قبيلته ، وعرف بالفروسية والشجاعة ، وارتحل إلى اليمن ، ونزل بساحة ملوكها ، ثم عاد ليتزوج بابنة عمه ، ولكنها كانت قد تزوجت رجلاً من قبيلة مراد اليمنية ، وزعموا له انها ماتت ، وزوروا لها قبراً .. ثم انكشفت الخدعة ، فارتحل يبحث عنها ، ومرض في الطريق مرضاً أقعده عن الحركة ، وسمعت به ابنة عمه ، فاسرعت إليه مع زوجها ، وحمله إلى قبيلة مراد حتى مات ، وسمى المرقش لقوله :

(الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم)

والمرقش شاعر مقل ، وأحسن شعره في الحماسة والفخر . توفي سنة ٥٢٢ م . ومن الرواة من ينسب هذه الأبيات لابن حزن النهشلي . ومعنى الأبيات أن قومه اسبق الناس =

وليس يهلك منا سيّد أبداً
إلا افتلينا غلاماً سيّداً فينا
شعثُ مفارقنا ، تغلى مَراجِلُنَا
نأسُوا بأموالنا آثارَ أيدينا
المطعمون إذا هبَّت شاميةٌ
وخيرُ نادٍ رآه النَّاسُ نادينا
ويقول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عِرضه^(١٤)
يقره ، ومن لا يتقِ الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل ، فيخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
ويقول المثقب العبدى :

أكرمُ الجارَ وارعى حقهُ
إن عِرفانَ الفتى الحق كرم
ويقول الشنفرى :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيهَا لمن خاف القلى مُتَحَوِّلٌ^(١٥)

= إلى المكرمات ، وأن غيرهم لا يلحقونهم فيها ، وإنما يأتون في أعقابهم ، أو يتخلفون بعيداً عنهم ، وإن الشرف صفة أصيلة فيهم ، واضحة في الابناء وضوحها في الآباء ، فإن مات سيد لم يخل مكانه ، بل يعد ناشئ منهم ليحل محله . وهم أهل كرم وبذل يستعدون دائماً للضيف القادم .

(١٤) من دون عرضه : وقاية له ، يقره : يحفظه .

(١٥) منأى اسم مكان من نأى بمعنى ابتعد - وشاعرنا هو ثابت الأوسى الشاعر الجاهلى =

ويقول الأعشى : (١٦)

ما النيل أصبح زاخراً في مده

جادت له ريح الصبا ، فجرى لها

= المعروف والذي ينتهى نسبة إلى قبيلة الأزد العربية ولقب بالشنفرى لضخامة شفتيه . وقيل إن الشنفرى هو الأسد أو الجمل أو الرجل النشيط والمعنى الأخير أنسب من وجهة نظرنا لطبيعة الشنفرى الذى ضرب به المثل فى سرعة العدو حتى لا تدركه الخيل فليل : أعدى من الشنفرى . وهو من الشعراء الفقراء الذين عرفوا فى تاريخ الأدب العربى « بالصعاليك » والشنفرى من الشعراء الفرسان انضم إلى جماعة « تابط شراً ، وسليك بن السلكة ، والمسيب بن علس ، وعمرو بن براق » وهذا البيت من قصيدة طويلة قالها الشنفرى تعبيراً عن ثورته ضد الظلم ، وعدم رضاه بالذل ، ودعوته إلى احتمال الأذى فى سبيل المحافظة على الكرامة . وهذه القصيدة التى منها البيت معروفة باسم « لامية العرب » لأنها تصور كثيراً من أخلاقيات العرب وعاداتهم .

(١٦) الأعشى هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل ، ينتهى نسبة إلى بكر بن وائل ، ولد فى قرية « منفوحة » من قرى الإمامة بين الخليج العربى والرياض قبل ظهور الاسلام بنحو نصف قرن ، ولقب بالأعشى لضعف بصره ، وقد برع فى الشعر منذ صباه ، واتخذ وسيلة لكسب الرزق ، وتنقل فى اطراف جزيرة العرب ، واختلط بالفرس وامتدح ملوكهم ، وحذق لغتهم حتى ظهر أثر ذلك واضحاً فى شعره فتعريب بعض الكلمات الفارسية . ويعد الأعشى من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الجاهلى ولاسيما فى وصف (الخمير) لعننا الله ، ولذلك قال مؤرخو الأدب . « أشهر الشعراء فى العصر الجاهلى امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابعة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب » ، ولشعر الأعشى حلاوة ورنه موسيقية فى نفس سامعة حتى سمي (صناجة العرب) ، وقد عاش حتى ادرك الإسلام وأعد قصيدة فى مدح الرسول ﷺ منها قوله :

فأقسمت لأرثى لها من كلاله

ولا من حفى حتى تلاقى محمدا

نبي يرى ما لا يرون وذكره

أغار - لعمرى - فى البلاد وانجدا

فعلمت بذلك قریش فاعترضت طريقه ، وأغرته بالمال حتى لا يكون عوناً للإسلام بشعره ، فرجع ومات فى طريقه إلى قريته من غير أن يسلم .

يوماً بأجود نائلاً منه إذا
نفس البخيل تجهمت سؤالها

وتقول الخنساء^(١٧):

وضيف طارق ، أو مستجير
يُروغ قلبه من كل جرس
فاكرمه ، وأمنه ، فأمسى
خلياً باله من كل بؤس

وقال ذو الإصبع العدواني لابنه^(١٨):

(يا بني أكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ،

(١٧) الخنساء هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من بني سليم . نشأت في بيت كريم . تقول الشعر مقطوعات قصيرة ، وقد زوجت بأحد أبناء عمومتها ، وكان متلافاً للمال مسرفاً وكثيراً ما كان يقع في الأزمات المالية فكانت الخنساء تلجأ إلى أخيها صخر فيفرج كربتها ، فلما قتل صخر حزنت عليه حزناً شديداً . وقالت فيه الشعر الذي يفيض آلاماً وأحزاناً حتى أصبحت الخنساء فارسة هذا الغرض في شعرنا العربي وبالذات في العصر الجاهلي ، ولكنها حين دخلت الاسلام وتأثرت بتعاليمه لم تجزع حين استشهد أبناءؤها الاربعة في واقعة القادسية ، وقالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم » . وقد كان الرسول ﷺ ، يعجب بشعرها ويستزيدها منه ، وتوفيت بالبادية في خلافة معاوية بن أبي سفيان .

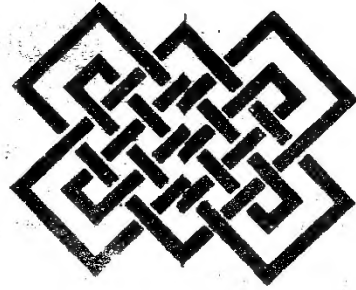
(١٨) ذو الإصبع العدواني : هو حرثان بن محرث العدواني ينتمي إلى قبيلة عدوان المضرية ، وسمى ذا الإصبع لانه كانت برجله إصبع زائدة أو لأن حية نهشت إبهام رجله فقطعها ، وكان من فرسان العرب وحكمائهم المعمرين في الجاهلية ، وله شعر جيد ونثر ممتاز . وهذه الكلمات من وصية حكيمة صادرة عن مجرب حنكته الأيام يوجهها إلى من يحب وهو ابنه اعز الناس إلى قلبه كنى ينتفع بها ويسير على ضوئها في حياته . وقد عرف كثيراً من العرب باستخلاص العبرة من تجارب الحياة ومنهم ذو الإصبع الذي أوصى ابنه أسيداً عندما أحس بدنو الأجل وبقرب الوفاة فقال الوصية التي أخذت منها الكلمات السابقة .

ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، وأكرم ضيفك ،
وأعن من استعان بك) .

قالوا : إن حاتم الطائي كان من الأجوادِ الأسخياء : نزل به قوم في
سنة مُجدبة ، شديدة القحط ، فلم يجد ما يقدمه غير فرسه الحبيب إلى
قلبه . فنحرة ، لثلا بيت ضيوفه جِيعاً .

ويقول قائل لامرأته :

إذا ما صنعت الزاد فالتِمسي له
أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكله وَخِدي





الموضوع	الصفحة
حول المؤلف والمخطوط وخطة التحقيق	٣
مقدمة المؤلف	٧
الباب الأول	
الإسلام دين البذل والكرم	٩
الباب الثاني	
الكرم هو الإيمان والطاعة	٢١
الباب الثالث	
أشتات لغوية	٣٣
الباب الرابع	
الكرم في الشعر العربي القديم	٤١
الباب الخامس	
البخل في الشعر العربي القديم	٦٥

مكتبة ابن سينا

للنشر والتوزيع والتصدير

٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - المتزمتة
- مصر الجديدة القاهرة ت ٢٤٧٩٨٦٣ / ٢٤٨٠٤٨٣